

فيكتور هوغو

وعلم الادب عند الافرنج والعرب

١

أدب كل لسان ما حصل فيه الاجادة من الكلام المنظوم والمنثور . ويشتمل على فنون الشعر والاغاني والروايات والقصص وضروب الامثال والحكم والنوادر والحكايات والمقامات والتاريخ والسياسة والرحلة وغير ذلك . وقد جمع نخبة من كلام العرب المتقدمين كتاب مجاني الادب المطبوع في بيروت . والاصل في الكلام للمعاني لا للالفاظ . لان اللفظ قالب أو ظرف للمعنى يتخذهُ المتكلم أو الكاتب لسبب ما يصوره في نفسه ويشككه في قلبه من المعاني فينقل بذلك مقصوده للسامع أو القارئ حتى يعلمه كأنه يشاهده . قال الشاعر :

ان الكلام لفي الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس يسمى « الفصاحة » و« البيان » لان المتكلم يفصح عما في ضميره ويبيئه بكلمات عذبة سلسة وبعبارات جليلة خفيفة على القلب واللسان . فالتكلم على هذا النسق « فصيح » وكلامه ملفوظاً كان أو مكتوباً « كلام فصيح » . وحيث كان المعنى سابقاً للفظ وجب أن تكون الالفاظ تابعة للمعاني وخادمة لها . وليس المعنى تابعاً للفظ كما حكى عن بعض الامراء انه ولي أحدهم قضاء « قم » وهي من مدن العراق العجمي بين طهران وكاشان ثم كتب اليه بلا سبب موجب « أيها القاضي بقم قد عزناك بقم » يعني بلفظ « قم » . فقال القاضي والله ما عزلني إلا محبة الامير في التزام السجع . ولا يكمل علم الادب للمتبحر فيه إلا بعد أن ينظر في أدب الامم المتمدنة ولو نظرة عامة يطالع بها على مجمل تاريخ ادبيهم وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم . فيقف

على ما عندهم من سعة الفكر وسهولة الإدراك وبلاغة المعاني ويعرف أساليبهم في النظم والنثر وتصرفهم في الكلام ويميز بين طرق المتقدمين والمتأخرين منهم فإذا أحاط علمه بذلك فهم الغرض الذي يتطلبه أئمة البلاغة من أي لسان وملة ورأى الهدف الذي يروم كل منهم أصابته فيصوب نحوه القلم عسى أن يكون له مع الخواطيء سهم صائب . لأن البلاغة لا تختص باللسان العربي وحده . وكلما ارتقت الأمة في سلم الحضارة كان لسانها أبلغ وأدبها أوسع واكمل لتهافت أدبائها على تنميق الكلام وتهذيب مناحيه وفنونه فيدركون بالتدرج حقائق المعاني التي ربما استعملها آباؤهم وأجدادهم في غير مواضعها بسبب الجهل الناشئ من ضيق العمران وقلة العلوم ويفرغون ما أوجدوه وما أصلحوه من المعاني في قوالب تناسبها من الالفاظ والتراكيب . « فالبلاغة » هي مطابقة اللفظ المعنى من جميع وجوهه بنحوه نفع للتراكيب في افادة المعنى المقصود الذي يقتضيه الحال والمقام . وفي المثل لكل مقام مقال . سواء كان انقال أي اللفظ عربياً فصيحاً باعراب أو حضرياً بلا اعراب أو اعجمياً بأن كان عثمانياً^(١) أو انكليزياً أو فرنسائياً أو فارسياً . أو غير ذلك . فالمتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتجربى التركيب المفيد لمقصوده على أساليب العرب والنحاء فخاطباتهم . وينظم الكلام على ذلك الوجه قدر ما يتيسر له . فإذا لازم قراءة الطبقة المالية من كلام العرب الاقدمين حصصت له ملكة فيه وسهل عليه التركيب على أساليبهم حتى لا يكاد ينحرف فيه غير منحى البلاغة التي للعرب . وان سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى نبا عنه « سمعه » وإذا كثرت اشتغاله بالترجمة والكتب المترجمة كانت أساليبه أعجمية مع بقاء الالفاظ في كلامه عربية . كما يتضح لمن أمعن النظر في رسائل ابن رشد المطبوعة في أوروبا ومنها ما طبع في مصر . وفي رسائل غيره من فلاسفة الاسلام وأهل المنطق . فإنه يرى فيها الأساليب

(١) اللسان العثماني هو المسمى باصطلاح الناس « اللسان التركي » ويتألف من ثلاث لغات احدها لسان جغتاي وهو أصل اللسان التركي . وثانيها اللسان العربي وثالثها الفارسي . وأول من وضع قواعد اللسان العثماني في عصر الاصلاح هو جودت باشا المؤرخ الشهير

الاعجمية والاهجة التي لم يلهجها أدياء الجاهلية
وامتاز لسان العرب وخصوصاً لغة مضر بخاصتين : الاولى تشمل حركات
الاعراب في اواخر الكلم وكيفية تركيب الالفاظ . فالحركات هي التي تدل في لغة
مضر على تعيين الفاعل او المفعول . وأما في غيرها من لغة الحضر وبقية اللغات فيدل
على ذلك التقديم والتأخير أو القرائن المبنية لخصوصيات المقاصد . وخواص التركيب
هي التي تدل في لغة مضر على ما تقتضيه الاحوال من التأكيد والتعريف والتنكير
مثل تقديم لفظ أو تأخيره لوصف المعنى وتكيفه ومثل زيادة حرف أو تنقيصه
لزيادة شيء في المعنى الاصلي لان زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كقولنا زيد
قائم وان زيدا قائم وان زيدا قائم . وفي القرآن الكريم حكاية عن الرسل قولهم
في المرة الاولى « انا اليكم مرسلون » وفي المرة الثانية « ربنا يعلم انا اليكم مرسلون »
فالالفاظ بأعيانها تدل على المعاني بأعيانها في كل لسان . وخواص التركيب في لغة
مضر من تقديم وتأخير وزيادة حرف تدل على الاحوال المكتنفة بذلك المعنى .
وأما في لغة الحضر وفي اللسان الاعجمية فأكثر ما يدل على هذه الاحوال بالفاظ
وكلمات مخصوصة . ولذا كان الكلام العربي أوجز وأقل الفاظاً وعبارة من غيره .
ولهذا أشار نبينا محمد عليه السلام بقوله « أوتيت جوامع الكلم واخضرت لي الكلام
اخضاراً » على ان بنية اللسان لم تخل بالكلية من هذه الخاصة الاولى للسان مضر
وحركات الاعراب موجود منها في اللسان العثماني تقول « زيد كادي » بسكون آخر
زيد ومعناه جاء زيد . و « زيدي جلب ايتدم » بكسر آخر زيد ومعناه جلبت
زيداً . وان لم يكسر آخر زيد لا يستقيم المعنى . وأما في لغات أوربا فالاعراب
من خصائص اللغتين اليونانية واللاتينية واللغة الالمانية . غير ان هذه الخاصة ربما
كانت في لسان مضر أكثر وأعرف وأثبت . واذا لم يراع الانسان هذه
الخاصة في اللسان الذي يتكلمه وقع له ما وقع للوليد مع الاعرابي . وذلك ان
الوليد بن عبد الملك بن مروان كان لائماً وكان أبوه عبد الملك فصيحاً فعرف بلحن
ابنه وقال له انك يا بني لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن وجعله في بيت

وجعل معه من يعلمه الاعراب فكث كذلك مدة ثم خرج وهو أجهل مما دخل فلما
بويع الوليد وجلس على كرسي الخلافة دخل عليه اعرابي يشكو صهراً له

فقال الوليد : - ما شأنك (بفتح النون)

فقال الاعرابي : - أعوذ بالله من الشين

فقال له سليمان بن عبد الملك : - أمير المؤمنين يقول لك ما شأنك (بضم النون)

فقال الاعرابي : - خنني ظلمي

فقال الوليد : - من خننك (بفتح النون)

فقال الاعرابي : - انما خنني الحجام واست أريد هذا

فقال سليمان بن عبد الملك : - أمير المؤمنين يقول من خننك (بالضم)

فقال : - هذا ، وأشار الى خصمه

والخاصة الثانية هي ما في لسان مضر من الاستعارات والتشبيهات والمجازات
 وأنواع البديع من الكلام وورد أحسنه في القرآن الكريم مثل « اشتعل الرأس شيباً »
 ومنه في الشعر كقول ابن المعتز « والشمس كالمرآة في كف الأشل » فجميع ذلك
 أتم وأكمل في لسان العرب ، ويمدون من الكلام البديع لفكتور هوكو تشبيهه
 موج البحر بقطع الغنم وقوله غنم البحر . وقول كمال بك امام الادب في اللسان العثماني
 « برق الحقيقة يلمع من تصادم الافكار » . فهذه البلاغة والبيان ديدن العرب .
 وفي كلامهم كثير من البديع أتوا به بغير تكلف ولا تعمل . وبعضهم تصنع له
 وتكلف ظناً بأنه أساس البلاغة والمقصود منها بالذات فملاوا بالبديع والاستعارات
 النظم والنثر وصرفوا الذهن وأجهدوا العقل حتى قالوا

مودته تدوم لكل هولٍ وهل كل مودته تدومُ

وتعافلوا عن ايضاح معنى المودة وهو من المعاني الكلية الجليلة التي أوضحها أدباء
 اليونان والرومان والافرنج فيما ألفوه من الروايات المضحكة أو الفاجعة وعرضوه في
 المراسح على انظار الجمهور فقدره الخواص حق قدره واستفاد منه العوام
 على ان تلك الحسنات البديعة والخصائص اللسانية وان كان لها تأثير عظيم على

النفس فهي لم تزل في نظر العقلاء كالحلي والمصوغ للعروس . فالعاقل يجتهد بأن تكون عروسه من ربات الجمال والدلال والادب والكمال فان وجد معها شيء من الحلي فنعم . والا فالمقصود منها هو نفسها وذاتها . فهي الضالة التي ننشدها ونأتي بها ولو من جبال القوقاس فنعلمها لساننا ونلبسها ما عندنا من اللباس ونتمتع بها فهذا أولى من لباس الجارية السوداء الحلي والحلل وصرف النقد والوقت في تزويدها . وللناس فيما يشقون مذاهب

فالتكاف في زماننا لتقليد الانشاء العالي ونظم قصيدة ثامنة للمعلقات السبع او سبع مقامات ثلاثة لمقامات الحريري والهمذاني ليس فيه كبير فائدة . مادام الاصل في الكلام المعاني والمقصود من المعاني اظهار اسرار هذا الكون الذي نصبح فيه ونمسي ونحن غافلون عن كثير من حقائقه ولا ندري بأي عبارة نترجم عنها ولا كيف نوضح شعورنا واحساسنا بهذا الوسط الذي نحن فيه وهو سجن لنا . والدنيا سجن المؤمن . فهذه المعاني البليغة العالية ينبغي لادباء العصر سبكها في السهل الممتنع من الكلام الفصيح بغير تهافت منهم على الكلمات اللغوية والمحسنات اللفظية من جناس وطباق وقراءة الكلام طرداً وعكساً . وأمثال ذلك مما يعده العقلاء من الملاعب الصبيانية اذ ليس هذا غاية الادب والغرض منه . وخير اللفظ ماجاء بالطبع والبداهة بلا تكلف ولا تحرف في القواميس والمنشآت . فخطبة ناظر المعارف الفرنسية الذي تلاها بمناسبة يوبيل الكياوي برتلوهي نموذج في بلاغة المعاني لمطابقتها لمقتضى الحال وايجاب المصلحة وهي من أحسن ما يقال في مثل تلك الجلسة وفي مناسبة ذلك الاجتماع . غير ان ذوقنا ربما يمجها لركاكة الترجمة . فان الالفاظ وان كانت عربية فتركيب هذه الالفاظ بعضها مع بعض لم يجز على اسلوب قس بن ساعدة او سبحان وائل ولا على طريقة الجاحظ امام الادب ولا يشبه رسائل عبد الحميد أو ابن العميد الذين قال فيها الثعالي : « فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد » بل جرى تركيب الفاظ تلك الخطبة على أسلوب الفرنسي المترجمة عنه . فأكثر الالفاظ في موضوعاتها التي وضعها فيه العرب الاولون . والركاكة بالنظر الى

التركيبة . وربما كانت بالنظر الى بعض المفردات أيضاً لان مفردات الفاظها لم تنتخب من القاموس المحيط ببلاغة هذا اللسان كالذي الفه الزمخشري وسماه أساس البلاغة وطبع بمصر .

ثم هناك أسباب أخرى أيضاً تحول بيننا وبين ادراك بلاغة تلك الخطبة وهي عدم وقوفنا على دقائق تاريخ القوم وعلى مزايا لغتهم وتسمياتهم وفقداننا الملمكة في هذا الاسلوب من الخطابة . ولذا ينبو سمعنا عالم يأت على أساليب بلغاء العرب وعمما لم يحرق على وفق مذاهبيهم في فنون الادب . حيث لكل قوم منهج معروف ومسلك مألوف . بل كل امام في الادب من اي امة كان يذهب فيه مذهباً جديداً ويستخلص لنفسه طريقة مخصوصة يخالف فيها طرق المتقدمين ومذاهبيهم . ولذا فاهل الذوق في الكلام اذا عرض عليهم شيء منه قالوا هو على طريقة فلان وأسلوب فلان وهو من انشاء فلان دون فلان كما لو عرضت خمر من خمر بورردو على أهل الذوق المشهورين باسم « ديكوستاتور » نقبض الواحد منهم بكفه على الزجاج حتى اذا سخنت بحرارة اليد وفاح منها الشذا المعروف عندهم باسم (بوكه) هزتها ونظر فيها فاذا الخمر في الزجاجه ياقوته سيالة ثم جرع منها جرعة ذاقها بطرف لسانه وقال لك هي من كرم « شاتولافيت » او « شاتولاتور » او « شاتومارغو » وفي هذه الثلاثة انحصرت الطبقة العليا من طبقات الخمر المعصور بارض « ميدوق » واتفق أهل الذوق والطب على انها من أطيب البقاع وابركها لانبات هذا الشراب الذي فيه منافع للناس واثمه اكبر من نفعه . لانه من جهة ترياق نافع ومن أخرى سقم ضار



والشعر كالنثر لا يختص بلسان العرب فقط بل يوجد في كل اسان من السن الامم المتمدنة والهمجية فان لأهالي افريقية أشعاراً يمدحون بها على آلات طربهم ويرقصون على أنغامها . وكان في الامم السالفة شعراء مجيدون مثل فياسه صاحب ديوان ماهاهاراته ومثل فالميكي صاحب ديوان رامايانه وهما من شعراء الهند وكهنتمها نظا الديوانين المذكورين باللسان السانسكريتي قبل الميلاد بقرون كثيرة وترجمهما العلماء

في زماننا الى اكثر اللغات الاوروبية فوجدوا أشعارها -عاسية دينية - زلي اليونان
الاول نحو مئتي الف بيت أو قسمة . وهما عند المنود بمثابة ما عند اليونان من الايلاذه
والاوذيسة نظم هو ميروس الشاعر الشهير . ولعل البستاني يتحفنا بذكر ما جناه من أدبه ^(١)
فان هو ميروس شيخ الشعراء بأجمعهم . ومثل شعراء الروم الذين كانوا في القسطنطينية
وما حولها من أرض الروم قبل ان يفتحها الفاتح . وشعراء الرومان اللاتينيين وشعراء
الفرس وامامهم الحسن بن اسحاق الفردوسي ناظم الشهنامة في القرن الرابع للهجرة وهو
عند الهجم كهوميروس عند اليونان وفرجيل عند الرومان ودانتي عند الطليان وميلتون
عند الانكليز . وتشتمل الشهنامة على تاريخ أ كاسرة الفرس وأخبارهم وقد طبعت مراراً
في الفارسية وترجمت للانكليزية والفرنساوية . وترجمها نثراً للمربية الفتح بن علي
البنداري الاصبهاني وقدمها لحزارة أحد الملوك الايوبية

ذكر الجاحظ في كتاب البيان والتميين « ان الفارسي سئل فقيل له ما البلاغة
فقال معرفة الفصل من الوصل ^(٢) وسئل اليوناني عنها فقال تصحيح الاقسام واختيار
الكلام وسئل الرومي عنها فقال حسن الاقنصاب عند البداهة والغزارة يوم الاطالة .
وسئل الهندي عنها فقال وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة وقال مرة التماس
حسن الموقع والمعرفة بساحات القول »

وفي الامم الأوربية والاميركية اليوم شعراء أعلى طبقة والبلغ كلاماً ممن تقدمهم
من شعراء الامم السالفة . وموازن الشعري في جميع اللغات على نسبة واحدة في اعداد
المتحركات والسواكن . والشعر الفرنسي تبني اعاريضه على عدد الهجاء فالبحر
الاسكندري (الكساندرين) على اثني عشر هجاء في الاصل . والروي أي القافية -
وهو الحرف الاخير من كل بيت - موجود في لسان العرب وفي السنن غيرهم . ولكن

(١) « الهلال » ان الايلاذة نظم سليمان افندي البستاني تحت الطبع الآن في

مطبعة الهلال

(٢) الوصل عطف بعض الجمل على بعض والفضل تركه

الفرنساويين قبل اختلاطهم بعرب الاندلس لم يكن لاشعارهم روي ولا قواف فأخذوا عن جيرانهم الاندلسيين علم القوافي كما سيجيء تفصيله . فقبل الشروع في بيان الطريقة التي سلكها فيكتور هوغو في علم الادب وشرح أساليبه في النظم والنثر وفي تصوير القصص والروايات نذكر شيئاً من أخبار العرب ليتبين لنا التأثير الذي أثره أديبهم على أشعار الافرنج وقوافيهم بوجه العموم وعلى فيكتور هوغو بوجه الخصوص . لان هذا الشاعر الحكيم نفع بنفحة من النفس الاندلسي واخذى بلبان من ارتضع قديماً ثدي الادب العربي . وبيان ذلك ان مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوغو دخلت في حوزة الاسلام حينما قطع أهله جبال البيرينه وأغاروا على مملكة اكيثانيا وليون وفتحوا ما في شمالها من المدن مثل ماقون وديجون . ثم دخلت بيزانسون في طاعة شارل كان صاحب الوقائع الشهيرة مع فرانسوا الاول ملك فرنساويين ومع معاهده وحاويه السلطان سليمان القانوني وذلك في القرن السادس عشر للميلاد . فنقل الامبراطور شارلكن عائلات كثيرة من الاسبان وانزلهم بيزانسون فاستمروا زمناً طويلاً وامتزجوا بأهلها ولم يزل لاهل بيزانسون شبه بالاسبان في ملامح الوجوه وفي اللهجة وفي كثير من الكلمات والتعبيرات مع ان مدينتهم لا تبعد عن باريس اكثر من اربعمئة كيلومتر . وقد أشار فيكتور هوغو الى ذلك في القصيدة الأولى من ديوان اوراق الخريف ووصف بيزانسون بالمدينة القديمة الاسبانية فذهبت مثلاً وصار الكتاب لا يفكرون عن وصفها بهذا الوصف . وعلاقة الاسبان بالعرب وباللسان العربي معلومة لا تحتاج الى ايضاح



أما العرب فلو نظرنا الى تاريخ أديبهم لوجدنا في مقدمته أشعار الحماسة كما نجد ذلك عند بقية الامم كالفرنساويين مثلاً فان النظم في لسان أديبهم دون قبل النثر . لان النظم يحصل التأنق في تأليفه والعناية في جمعه فيضم أطراف الكلام وحواشيه ويكون في بادىء الامر أبلغ مما عاصره من النثر فيحفظ في الصدور ويتداول على الالسنه . ثم تزيد العناية به فيدون بالتحش أو الكتابة ويعلق على الجدران . وهذا

معنى قولهم النظم في تاريخ الادب سابق للنثر . والآن فأول ما يبدأ من الكلام بالنثر لقب تناوله وسهولة استعماله . ذكر الباقلاني في اعجاز القرآن المطبوع في مصر ان العرب بدأوا بالنثر وتوصلوا منه الى الشعر وكان عثورهم عليه في الاصل بالاتفاق غير مقصود اليه . فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا الاسماع تألفه والنفوس تقبله تتبعوه وتعموه وتكافوا له . فنبغ فيهم الشعراء وأقبل الناس رجالاً ونساء على حفظ أشعارهم ورواية أخبارهم والتفاخر بانشاد القصائد الكثيرة في المواضيع المختلفة والاستشهاد بكل بيت من أبياتها عند الحاجة . فجعلوا الشعر من بين الكلام ديوان علومهم وأخبارهم وحكمهم وشاهد صرايهم وخطائهم وانزلوا الشاعر البليغ منزلة الامام العالم الذي يهتدى بنبراس قريحته وبفزع رأيه في مشاكل الاقضية ومعضلات الامور . فكانت كلمة الشاعر هي الكلمة العليا وقوله أمضى من السيف واحد من السنان وحكمه نافذ كحكم الشرع في القضاء . وربما رفع الشاعر بالبيت الواحد عز القبيلة او هدمه . كما وقع لشاعر قبيلة انف الناقة بعد ان كان اسمها مجلبة للعار بين القبائل . وكان السجع من الكلام يجري على السنة الكهان والحكماء والعرافين واهل الزحر (١) والغال وأنواع الحكم والطب مثل شق وسطيح وحنظلة بن صفوان كاهن حمير وخالد بن سنان العبسي الذي قالت ابنته حينما سمعت قراءة « قل هو الله أحد » كان أبي يقرأ مثل هذا . وأميه بن أبي الصلت الثقفي وكان افتتاح كلامه « باسمك اللهم » وقس بن ساعدة ورباح بن عجلة عراف اليمامة والابلق الاسدي عراف نجد وغيرهم

غير ان تاريخ ادب العرب قبل الاسلام لم ينزل في حيز الخفاء لعدم تمكن العلماء من درس اللغات او اللهجات العربية السابقة على لغة مضر ك لغة حمير مثلاً فانه لم يشتهر عندنا من قواعدها أكثر من حديث « أمن امبرامصيام في امسفر » حيث استعمل فيه (ام) عوضاً عن (ال) التعريف . ولا يكشف الغطاء عن هذا القسم من تاريخ الادب الا بعد استخراج ما في أرض اليمن من اللوح التي تدعى بالمسند الحجري

(١) وهم صنف من المتكلمين بالغيب يزجرون انفسهم في مسموع او مرئي كسئوح

طائر او حيوان ويفكرون فيه بعد مغيبه

وما في خرائب مدائن صالح وأرض الحيرة وسائر جزيرة العرب من الآثار القديمة العادية التي كان لاصحابها نصيب من الحضارة وكان لادبهم تأثير على أدب مضر . وقد تفرغ نخبة من مستشركي الافرنج للبحث عن تلك المستندات والآثار القديمة العربية . ولعل المثبت باتمام السكة الحديدية الحجازية يسهل لهم هذا البحث . فممن عرفت من أولئك المستشرقين ايدوارد غلازر من الالمانيين وكان اطلعني ونحن في الاستانة على ما اكتشفه من المسند الحميري وجاء به من أرض اليمن . والمسند لوح من الحجر عليه كتابة بأحرف مقطعة قائمة الزوايا وبعضها مدور كالدائرة . وحدثني هذا المستشرق الفاضل عن رحلته في جزيرة العرب وهو يتكلم العربية بلهجة يمانية بدوية . وفي سنة ١٨٩٥ نشر في مونيخ كتاباً بالالمانية عن مأرب وحمير والحبشة ثم نشر كتاباً آخر في براين وقدمه اوتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ . ولما اتيت هذه المدينة حضرت الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ في الصوربون وهو يلقي دروسه في اللغة الحميرية ويفسر المستندات ويترجمها للفرنساوية وله رسالة ترجم فيها ما في متحف اللوفر من آثار حمير وسبأ . ومن المشتغلين باللسان الحميري هاليفي الفرنسي مدرس اللغة الحبشية في الصوربون . وله مقالات في المجلة السامية بحث فيها عن اتفاق الحبشة مع اهل سبأ على اهل حمير النازلين في شرقي حضرموت وللعلماء اشتغال بهذه اللغة في انكارة وايطاليا ايضاً لاهتمام الاولى بجمع ما يتعلق بالعالم الاسلامي والعربي وللمناسبة بين الثانية وبين الحبشة واختلاط تاريخ الحبشة بتاريخ حمير . الا ان هذا العلم لم يزل في النشأة الاولى محتاجاً للتدقيق والتحصيص حتى يتيسر للعلماء ان يوضحوا لنا كيف كان اللسان الحميري مع اللسان المضري . فان ابن خلدون يقول في مقدمته « ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بمثابة ما هو اليوم اللسان المضري مع لغة العرب لهذا العهد - وهي التي بدون اعراب فقد منها دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول وعوض عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد - وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته . تشهد بذلك الانتقال الموجودة

لدينا خلافاً لمن يجعله القصور على انها لغة واحدة ويتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القيل في اللسان الحميري انه من القول وكثير من اشباه هذا وليس ذلك بصحيح . ولغة حمير لغة اخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب اهدنا مع لغة مضر . الا ان العناية بلسان مضر من اجل الشريعة ابي القرآن والسنة حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء . ولعلنا لو اعطينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه نعضاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بأمر اخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها واعلمها تكون في اواخره على غير المنهج الاول في لغة مضر « آه

فأخذ ذلك المستشرقون من الافرنج واعتنى بعضهم بتدوين اللسان العامي واستقراء احكامه كما فعل موسيو هوداس الفرنسي في لغة الجزائر العربية ونشر فيها كتاباً ولم يزل يدرسها في مدرسة اللسان الشرقية في باريس كما تدرس ايضاً في مدرسة المستعمرات وفي المدارس العسكرية بباريس وغيرها . ولهم في ذلك مآرب سياسية لا نخوض فيها . الا ان تدوين اللغات العامية — بالنظر الى انتشار العلم وتوسع الحضارة — له محاذير كثيرة وموجب للتفرقة ونصب الحواجز بين أمم هذا العالم العظيم الممتد من المحيط الغربي الى بلاد العجم والهند . والعلماء في عصرنا يجتهدون في ازالة الموانع التي استلزمها تباين اللغات بين الامم ويسعون في ايجاد لغة عامة لعموم بني البشر وفي جميع افراد الانسان على لسان واحد . فكيف يجوز حينئذ تفریق لسان أمة كبيرة الى السنة همجية عامية ووضع لسان مخصوص لكل من الجزائر وتونس ومصر وسوريا وبنغداد والموصل والزنجبار والهنزوان ثم لمراكش وغيرها من المتكلمين بلسان جزيرة العرب وتدوين كل واحد من هذه اللسان التي يراد وضعها كما تدون اللسان الجديدة الهمجية مثل لسان حوصه وغيره من لغات أفريقيا وأنا نجد اللغة الفرنسية على ما فيها من التباين بين ما يتكلمه سكان المدن وما يتكلمه أهل القرى وعدم فهم الباريزي السن الباتوا التي يتكلمها القاطنون في

جبال البيرينه وأوفيرنيه وفي الايلات الغربية والجنوبية من أراضي فرنسا لم يجوزوا فيها تدوين لغة الايالة بروفانس أو بریطانيا مثلاً ولا سمحوا بانشاء جريدة فيهما . وانتهى بهم التعصب الى محو ما كتب بلسان الباسك وهم سكان جبال البيرينه من جهة المحيط مع ان المتكلمين بها يفتخرون بقدمهم على سائر الامم الاوروبية . فكيف يصوغ اذا تدوين لغة الجزائر؟ وأهلها لا يتعذر عليهم فهم (قفانك من ذكرى حبيب ومنزل) لاستعمالهم مواد هذه الكلمات الاصلية من وقوف وبكاء وذكر وحب ونزول واذا لم يفهموا ما بعد ذلك فالتصور ناشئ من الجهل بالجغرافية لا بأصل اللغة التي لم يزل لهم بأصولها وموادها ملكة راسخة . فان سقط اللوى . والدخول ، وحومل ، وتوضح ، والمفردة المذكورة في قول امرئ القيس :

قفانك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمفردة لم يعف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال
هي اما كن معروفة عند أهل الحجاز كما ان مقرة ومقطع الحديد من الاماكن
المعروفة عند أهل الجزائر لشهرتها باستخراج معدن الحديد . فبدلاً من تدوين لغة
الجزائر العامية كما دونت لغة حوصه ومن نشر المؤلفات والمطبوعات فيها
والاجبار على تعليمها في المدارس للاطفال - لو سعى اهل العلم وأرباب القلم في التقرب
من لغة مضر المدونة وازالوا منها (العامية) كما ازيلت (الباتوا) من اللغة الفرنسية
وهذبوها من الجناسات والتشابه الغامضة واخناروا فيها السهل من الالفاظ والتراكيب
واصلحوا املاءها وكتابة أسماء الاعلام فيها لكان فعلهم على ما نطن اسهل وأنجح
من تدوين لسان عامي بل السن همجية واقامة الحواجز بين المتكلمين بها . مع ان
ازدياد وسائل النقل والمخابرة يستدعي كثرة اختلاط بعضهم ببعض . وعما قريب
سيتم مد الخطوط الحديدية ويصبح السفر من مراكش الى بغداد والهند أو الى
الحجاز اسهل مما كان قديماً بين مصر القاهرة والاسكندرية . فلا يحتاج المسافر الى
استصحاب كتاب (جامع اللغات) ليعلم منه السن الجزائر وتونس وطرابلس ومصر
وفلسطين وسوريا وبغداد والحجاز . أما انتشار المطبوعات العربية فهو آخذ بالترقي

ونجد لمطبوعات مصر رواجاً في تونس والجزائر ولا بد ان تمتد يوماً على عموم سكان القارة الافريقية

أما لغة مضر فبدون ان نقف على حقيقة الادوار التي دارت عليها ولا على الاطوار التي تقابلت فيها نجدها في العصر السابق للاسلام على جانب من الفصاحة والبلاغة مشتملة على أنواع التشبيه والاستعارة والبديع واكثرها حماسية وفيها من التصورات البديعية والتخييلات الشعرية واللاطف والرقعة والادب ما يدلنا على ان اللغة لم تكن اذ ذلك في عهد الطفولية فان الفرق بين اشعار المعلقات وبين اشعار (الزرو بادور) الفرنسية عظيم . لما في الاخيرة من الحشونة وعدم الرقة . واذا غازل شاعر الجاهلية فتاة الحبي حسبته أديباً من أدباء باريس . . .

ونجد للعرب قبل الاسلام انواعاً كثيرة من فنون الادب والشعر منها القصيد والرجز والاغاني ومنها ما ينشد في الحرب على الدفوف . ومنها ما يجدى به للعيس او يغني به للرقص وتسكيت الاطفال ومنها السجع والترسل والخطب والرسائل وضروب الامثال والحكم . والحاصل كانت فنون اديبهم اثنى من ميعشتهم البدوية . وكان لهم موقر واكاديمية للتفاخر باللسن والفصاحة . وكانوا يقيمون لذلك المواسم والاعیاد فيجتمعون أولاً في سوق عكاظ وهو واد بين مكة والطائف فيه ماء وظل وخضرة فيقيمون فيه شهراً ويذهبون منه الى سوق مجنة ثم الى سوق ذي الحجاز وهما بناحية مكة . ثم يذهبون في ذي الحجة الى البيت الحرام موضع حجهم . فكان اديبهم وهم ذوو الرئاسة والمكانة فيهم يتنافسون بالادب والحكم وبقصصهم هذه الاسواق لانشاد الشعر والقاء الخطب . فاذا اجتمعوا بسوق عكاظ ضربت قبة لا كبر الشعراء في عصره كالناطقة الذياني الذي سمي اشعر العرب فجلس في القبة وجاءته الشعراء كما جاءه حسان مثلاً وعرضوا عليه انفس اشعارهم . وقام الحارث بن حلزة يتبخر بين الجموع يتبخر الجاهلية ويقول :

أذنتنا بينها اسماء رب ناء يمل منه النواء

بعد عهد لها بفرقة سمرا ء فأدنى ديارها الخمصاء

حتى يأتي على آخر هزيتيه فيحكّم في مقاله أولو الذوق الصحيح والطبع السليم
وعيزون فيه بين الغث والسمين ويقابلونه بغيره من كلام المعانيات . ثم وقف قس بن
ساعدة على بهير له أحمر وقال « أيها الناس اجتمعوا واذا اجتمعتم فاسمعوا واذا سمعتم
فعوا واذا وعيتم فقولوا . واذا قلت فاصدقوا . من عاش مات ومن مات فأت وكل
ما هو آت آت » فيكون الناس قد اجتمعوا حوله فيبدأ لهم في الخطبة بقوله
« أما بعد . . . الخ » كانه خطيب فرنساوي بل انكازي يخطب في هايدبارك

وكان لكل شاعر مبلغ يبلغ عنه الجمهور وراوية يروي له الاشعار . فكانت الرواة
في ايامهم كالجراند في يومنا ولذا كانت الاشعار تنتشر وتشتهر في مدة قليلة بين جميع
القبائل في جزيرة العرب . وانتهوا في العصر السابق للهجرة الى المناغاة في كتابة
تصاندهم بالذهب وتعليقها بأركان الكعبة كما فعل أصحاب المعانيات السبع وهم :

(١) امرؤ القيس واسمه جندج بن حجر الكندي وكان أبوه يملك في جهة الحيرة
على بني أسد ويضرب المثل في شهرة معاقته فيقال (أشهر من قفانك) وله غير هاديوان
مشروح ومطبوع وترجم الى اللغات الاوروبية ويقال ان أحسن ما في شعره وصفه
الفرس ' ولذا ضرب المثل بامرئ القيس اذا ركب والنايفة اذا رهب وزهير اذا
رغب . وقيل ان امرئ القيس توفي سنة ٥٤٠ م وكان مغرماً باللهو والزهو والخمر والنساء
وكلامه في المعاقمة منادمة ومداعبة . ومدح في شعره تغلب على بكر

(٢) طرفه بن العبد وديوانه ترجم للفرنساوية في الصور بون وطبعه الموسيو
سليغسون (Seligsohn) ومعاقته تبحث في النساء والخمر والاهو وطيب العيش
(٣) عمرو بن كثوم و (٤) الحارث بن حلزة اليشكري من قبيلة بكر بن وائل
وله ديوان وفي معاقته الهزلية وفي معاقمة عمرو المذكور خبر حرب البسوس التي وقعت

(١) بقوله :

وقد اغندي والطيرو في وكناتها	بمنجرد قيد الاوابد هيكل
مكرّ مفرّ مقبل مدبر معاً	كجلمود صخر حطه السيل من عل
له ايطلا ظي وساقا نعامة	وارحاء سرحان وتقريب تنفل

بين بكر وثغاب (٥) زهير بن أبي سلمى و (٦) عنتر بن شداد وفي معلقتيهما ذكر حرب داحس التي وقعت بين عبس وذبيان . وقصة عنتر الشهيرة المطبوعة في بيروت ومصر ترجمها سابقاً للامانية المستشرق النمساوي هر (Hammer) صاحب تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ الادب العثماني وتاريخ الادب العربي . ثم ترجم شيئاً من قصة عنتر للفرنساوية مارسيل ديفيك (Devic) معلم العربية في كلية مون بيليه وهي من أقدم مدارس الافرنج . وكان اطباء العرب واليهود المستعربون يدرسون فيها الطب

(٧) لبيد بن ربيعة العامري القائل « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » وفي كلامه كثير من الحكم ووصف في أشعاره اخلاق عرب البادية وأطوارهم وعوائدهم وله غير المعاقمة ديوان أشعار طبع منه الجزء الاول في فينا عاصمة النمسا الشيخ يوسف ضياء الدين باشا الخالدي المقدسي سنة ١٨٨٠ وجعل له مقدمة وشرحاً فترجو منه اتمامه وظهر من فطاحل الشعراء غير من ذكر النابغة الذبياني وطبع ديوانه الاستاذ هارتواغ دير بنورغ (H. Derenbourg) سنة ١٨٦٩ وفسره وحشاه . ومنهم حاتم طي الشهير بالسخاء وقد جمع أشعاره غضبان افندي وطبعها في لوندرد وسماه ديوان حاتم طي . ومنهم دريد بن الصمة والشنفرى الازدي والاعشي الاكبر وتأبط شرا وكثير غيرهم . يحكى عن حماد الراوية انه انشد بحضرة الوليد من كلام الجاهلية مئة قصيدة لكل قافية من قوافي الحروف العربية لا تنقص القصيدة عن عشرين بيتاً وفيها ما يربو على المئة بيت . فمهما بالغ الخاكي لا تنكر كثرة ما قرض من الشعر على عهد الجاهلية . ولهم غير الشعر والرجز خطب ورسائل وكثير من ضروب الامثال التي نقلت عنهم ودونت في المجاميع

وسمي كلام هذه الطبقة من الادباء « كلام الجاهلية » لجهلهم بما جاء به الاسلام والآن فهم أئمة في الادب يقنطدى بهم . ولذا اتخذ من جاء بعدهم كلامهم منوالاً نسجوا عليه مثله وقالبا افرغوا فيه شبهه من الالفاظ والتراكيب . ولم يزل الادباء على ذلك الى يومنا هذا كما فعل أصحاب « عكاظ الادب » المطبوع في الاستانة عقب الحرب

اليونانية الاخيرة . واذا تأملنا كلام الجاهلية نجدهم وصفوا الطبيعة أحسن وصف
وصورها أكل تصوير بالنسبة لخالقهم البدوية واصحابهم الرملية فميزوا بين أنواع
الرمل وسموا كل نوع باسم مخصوص مثل (الخنف) وهو الرمل المنفرج و (العنقل)
الرمل المنعقد الداخل بعضه في بعض و (البطن) من الارض و (الخبت) من الارض
كل ذلك من أشكال الارض المختلفة كما قال امرؤ القيس في معلقته

فقمتم بها أمشي تجر وراءنا على أثرنا أذيال مرط مرجل
فلما اجزنا ساحة الحي وانتهى بنا بطن خبت ذي حفاف عنققل

والمرط نوع من أثوابهم يقال لو شبه الترجيل حسب (مودة) ذلك الزمان
فوصفوا في هذا النمط جميع ما شاهدوه في الطبيعة ونطقوا بما شعروا به في قلوبهم ووجدوه
في انفسهم من التأثير الحسي وان ذكروا بعيراً أو فرساً لم يتركوا شكلاً الا شرحوه
شرحاً مفصلاً . فحيث كانت الفصاحة هي الاقدار على الابانه عن المعاني الكامنة في
النفوس كانت غاية الاديب منهم اثبات اقداره على ايراد صور مختلفة للشيء الواحد
واظهار تعمقه في معرفة اللغة وحسن تصرفه في استعمال الكلمات المترادفة المتقاربة .
وكان لهم نظر جيد في العوالم والكائنات كقول قس في بعض الروايات ، « ليل داج
وسماء ذات ابراج ونجوم تزهر وجمار تزخر وجمال مرسة وأرض مدحاة وانهار مجرة
النخ » ولهم أساليب بدیعة في ذكر البرق والسحاب والمطر وسائر الغيرات الجوية وكذا
في ذكر الرسوم والظلال والمنازل والروض والاشجار ومنابت العشب الى غير ذلك مما
هو مذکور في كتبهم ومعروف

ولغزارتهم وتمكنهم من اللغة لم يكونوا يتصنعون لتأليف المحاسن البدیعة في الكلام
انما كانت نوايغ الكلم تتفق لهم اتفاقاً وتطرد في كلامهم اطراداً بخلاف من أتى بعدهم
فانهم صنعوا المحاسن البدیعة تصنيفاً وتحرروا عليها . ومع ذلك فالبلغ من الكلام لم
يصدر من افواه الجاهلية الا بعد التروي والتصنع والتنقيح والتهذيب وقد تعبوا وكدوا
أنفسهم وجاهدوا خواطرهم وكان زهير يسمي كبير شعره الحوليات المنقحة

وقال عدي بن الرقاع

وقصيدة قد بت أجمع بيتها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف في كهوب قناته حتى يقيم ثمنافه منآدها

وقال سويد بن كراع :

أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادي بهاسرباً من الوحش نزعا

وسموا زهير والخطيئة وأشباههما عبيد الشعر لأنهم تقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . قال الباقلاني « وكانت العرب تعلم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن (قنانيك من ذكرى حبيب ومنزل) ويسمون ذلك الوضع الميتر واشتقاقه من المتر وهو الجذب أو القطع يقال مئرت الخيل بمعنى قطعته أو جذبته » . والفرنساويون يسمون العروض ميتر وميتريك ويقولون انه مشتق من معنى القياس باليونانية وله دروس مخصوصة وأساتذة في الصور يون . والف في العروض العربي المستشرق استانسلاي كوبرار معلم العربية في (كلية فرانس) عدة رسائل واستنبط فيه قواعد جديدة نال عليها الجائزة وثناء العموم . وعبر العرب عن قول الشعر ونظمه بالقرض وعن الشعر بالقريض . ومعنى القرض القطع لان الشعر مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة . وكانت عنايتهم في الجاهلية مصروفة للكلام على المنظوم من شعر وسجع لأن تأثيره في النفوس أشد لما يحدثه من النعمة التي تطرب لها الاذن وتلهو بها عن تمحيص الحق من الباطل في الكلام . وذلك ان الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم أي المسبوك تنقسم الى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه . ثم الى أنواع الكلام الموزون غير المتقفي . ثم الى أصناف الكلام المعدل المسجع . ثم الى معدل موزون غير مسجع . ثم الى ما يرسل ارسالاً وتطلب فيه الاصابة والافادة وأفهام المعاني على وجه بديع وترتيب لطيف . وهذا القسم الاخير شبيه بالكلام الذي لا يتعمل ولا يتصنع له . بخلاف القصيد من الشعر فانه يلتزم فيه قافية واحدة الى آخر الكلام ويشترط ان يكون كل بيت كلاماً وحده مستقلاً عما قبله وما بعده واذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح او غزل أو رثاء أو هجاء أو حماسة . والرجز ضرب من الشعر ولو لم يلتزم فيه ان يكون على قافية

واحدة . والسجع يلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة ويذمون كل سجع خرج عن اعتدال الاجزاء . والمتفني قد انتصر له سبي في زماننا عبد الحق حامد بك مستشار السفارة العثمانية في لوندرة والف فيه رواية باللسان التركي على الطرز الجديد . وأما المرسل فهو الذي يرسل فيه الكلام ارسالاً بدون تقييد بقافية او سجع او وزن او شيء ما بل يطلق اطلاقاً . ويتأتى في هذا القسم من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتى في السجع ولا في الشعر لان السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع او القافية . وكذلك الشعر يضيق نطاق الكلام ويمنع القول من انتهائه ويصده عن تصرفه على قواعده . ومن ياتزم في كلامه السجع او الوزن أو القافية فهو يلفق بهما ما ينقصه من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال ويعبده بذلك القدر من التزيين بالاسجاع ورن الصوت بالوزن والنغمة كما يزيفه بتمية الصنائع البدعية ويفعل عما سوى ذلك من بلاغة المعاني . فاما سلك الشعراء في الجاهلية حفظ الالفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها عرض بهم القرآن الكريم فقال « والشعراء يتبهمم الغاؤون ألم تر انهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لا يفعلون » قال الباقلاني « فأخبر انهم يتبعون القول حيث توجه بهم واللفظ كيف أطاعهم والمعاني كيف تتبع الفاظهم وذلك خلاف ما وضع عليه الابانة عن المقاصد بالخطاب » . ولما شرعت دية الجنين جاء بعض العرب الى النبي عليه السلام وكاهوه في هذا الشأن وافقوا كلامهم بالسجع ليحعلوا فيه قوة الحجة الدافعة والبرهان القاطع فقالوا :

— كيف ندي من لا أكل ولا شرب ولا صاح فاستهل اليس دمه قد بطل

فقال : — اسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟ اسجعماً كسجع الكهان ؟

نعم ان الشعر اذا تهذب ووفي له بجميع الاسباب لم يقاربه من كلام الادميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب . ولكن قلما يفلح الشاعر المجيد الا في بعض الايات سيما في الشعر العربي حيث ضيق فيه النطاق على الشعراء والزموا باتباع القواعد التي تخطاها شعراء الافرنج . على ان اكثر فحول الادب في البلاد المتقدمة صارفون عنايتهم في يومنا الى النثر المرسل دون النظم كما فعل فيكتور هوغو في آخر عمره وكما يفعل اليوم

اميل زولا وغيره مثل تولستوي اديب الروس



ثم ظهر الاسلام وجاء القرآن بافصح لفظ وأبلغ معنى على أسلوب جديد يخالف أساليب العرب في النظم والنثر فلا هو مرسل ولا مسجع بل تفصيل آيات ينتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الاخرى من غير التزام حرف يكون سجما أو قافية وسميت آخر الآيات فواصل لانها ليست اسجاءاً ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قواف . ووقع اللفظ في القرآن تابعاً للمعنى ولذا فاق كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من انواع بلاغتهم . لان الواحد منهم ان برع في فن من فنون النظم أو النثر قصر فيما دونه والقرآن أبدع في جميع ضروب الكلام وطرق الافادة واشتمل على قصص وأخبار وشرائع وأحكام ووعد ووعيد وترهيب وترغيب وتنزيه وتحميد وحجج على التوحيد وأمثال سائرة ومواعظ زاجرة وأصول ادارية وسياسية وغير ذلك مما لم يحط بنصفه بل ولا بربعه اديب من الادباء ولا شاعر من الشعراء . وناضل عن الحرية وخفف أذى العبودية وندد بالظلمة وتوعدهم بما تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم فقال في الوعيد « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » وبين استبداد المستبدين من الملوك والسلاطين وكيفية ايقاعهم التفرقة بين رعاياهم ثم ايصال الجور والاذى اليهم فرقة بعد أخرى كما كانت سياسة فراعنة مصر وفارسة بابل وقياصرة الرومان والروم واكاسرة الفرس فقال في تصوير هذا الاستبداد :

« ان فرعون علا في الارض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين . ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونؤتي فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »

قال الباقلاني (١) « ذكر الملو في الارض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء

وإذا تحكّم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم والظلم لا تقر على هذا الجور . ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيذ وكفت في التظلم وردت آخر الكلام على أوله وعظمت عجزه على صدره . ثم ذكر وعده تخليصهم وجماهم مستقلين بأمرهم وارثين لارضهم » ومما ورد في القرآن الكريم في السياسة والمناسبات الدولية التي كانت بين مملكة فلسطين وعاصمتها اذذاك أورشليم وبين مملكة سباء وعاصمتها مأرب وما كتب به سليمان بن داوود عليهما السلام الى بلقيس وما اشتقت به من التدبير والمشورة واستطلاع عواقب الامور وارسال الهدية لفك عراقيل السياسة بالوسائط الدبلوماسية الى غير ذلك ما نصه : (١)

قال - اذهب بكتابي هذا فألقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون
قالت - يا أيها الملك اني القي اليّ كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله
الرحمن الرحيم الاّ تعلوا عليّ وأتوني مسلمين

قالت - يا أيها الملك افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون
قالوا - نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين
قالت - ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك
يفعلون . واني مرسله اليهم بهدية فناظرة بما يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان

قال - اتمدونني بما لهما أتاني الله خير مما أتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون .
ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون -
الى آخر القصة - وترى فيها مجيء أهل سباء مسلمين الى أورشليم والاحتمال باستقبالهم .
واراثتهم عز الملك وارتقاء الصنائع وما أتى به الذي عنده علم من الكتاب من عرش
ملكهم حتى قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو . واصطناعهم لها صرحا يذكرنا
قصر الزجاج الذي أنشئ في معرض باريس الاخير . وقيل لها ادخلي الصرح فلما

(١) سورة النمل . والذي قال هو سليمان عليه السلام وقالت هي بلقيس وقالوا
هم رجال دولتها واعيان بلادها

رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال انه صرح ممد من قوارير قال
الباقلاني - وهو القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الاشعري المعروف بابن الباقلاني
وكان ملك الاسلام في بغداد عضد الدولة من آل بويه ارسله سنة ٣٧١ هـ سفيراً
الى قيصر الروم في القسطنطينية وهو قسطنطين التاسع من سلالة مكسونيا وكانت
السفارة في جواب رسالة وردت عليه منه - قال : « متى تهباً للآدمي ان يقول في
وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة
العالية « الاتعلوا عليّ وأتوني مساهين » . والخلوص من ذلك الى ما صارت اليه بلقيس
من التدبير واشتغلت به من المشورة ومن تعظيمها أمر المستشار ومن تعظيمهم أمرها
وطاعتها بتلك الالفاظ البديعة وانكلمات العجيبة البليغة . ثم كلامها بعد ذلك لتعلم
تمكن قولها « يا أيها الملأ افتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون » .
وذكر قولهم « قالوا نحن اولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين »
لا تجدي في صفتهم انفسهم ابداع مما وصفهم به وقوله « الامر اليك » تعلم براعته بنفسه
وعجيب معناه وموضع اتفائه في هذا الكلام وتمكن الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك
قوله « فانظري ماذا تأمرين » ثم الى هذا الاختصار والى البيان مع الايجاز فان
الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والايجاز وهذا مما يزيده الاختصار
بسطاً لتمكنه ووقوعه موقعه ويتضمن الايجاز منه تصرفاً يتجاوز محله وموضعه . وكـ
جئت الى كلام مبسوط يضيق عن الافهام ووقعت على حديث طويل يقصر عما
يراد به من التمام ثم لو وقع على الافهام فما يجب فيه من شروط الاحكام كـ
أو بماني القصة وما تقتضي من الاعظام . ثم لو ظفرت بذلك كـه رأيته ناقصاً في
وجه الحكمة . أو مدخلاً في باب السياسة . أو مصفوقاً في طريق السيادة . أو مشترك
العبارات ان كان مستجود المعنى . أو جيد البلاغة مستجلب المعنى . أو مستجلب
البلاغة جيد المعنى أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة . أو مستبهم الجانب مستكره
الوضع . وأنت لا تجدي في جميع ما تلونا عليك الا ما اذا بسط افاد واذا اختصر كل في
بابه ووجد واذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره وبعث العليم في أطرافه عيون

مباحثه لم يقع الا على محاسن تتوالى وبدائع تترى . ثم فكر بعد ذلك في آية آية او كلمة كلمة في قوله « ان الملوك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون » هذه الكلمات الثلاث كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره وكالياقوت يتلألأ بين شذوره . ثم تأمل تمكن الفاصله وهي الكلمة الثالثة وحسن موقعها وعجيب حكمها وبارع معناها وان شرحت لك ما في كل آية طال عليك الامر ولكن بينت بما فسرت وقررت بما فصلت الوجه الذي سلكت فيه والنحو الذي قصدت والغرض الذي اليه رमित والسمت الذي اليه دعوت ثم فكر بعد ذلك في شيء ادلك عليه وهو تماثل هذا النظم في الاعجاز في مواقع الايات القصيرة والطويلة والمتوسطة فاجل الرأي في سورة سورة وآية آية وفاصلة فاصلة وتدبر الخواتم والفواتح والبوادي والمقاطع ومواضع الفصل والوصل ومواضع التنقل والتحول ثم اقض ما انت قاض وان طال عليك تأمل الجميع فاقض على سورة واحدة او على بعض سور . ما رأيك في قوله « ان فرعون علا في الارض . وجعل اهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحبي نساءهم انه كان من المفسدين » هذه تشتمل على ست كلمات سناؤها وضيائها على ما ترى . وسلاستها وماؤها على ما تشاهد . ورويقها على ما تعابن . وفصاحتها على ما تعرف . وهي تشتمل على جملة وتفصيل وتفسير ذكر العلو في الارض الخ « اه

ومن ذلك يعلم اقتدار هذا السفير الكبير في « الانتقاد الادبي » (1) الذي له المقام الاسمي بين علوم الادب . والافرنج فيه عناية زائدة وجرائدهم تنشر فيه المقالات الضافية . ولجريدة الطان محرر ماهر في « الانتقاد الادبي » وهو « غاستون ديشان » واذا امعنا النظر في القرآن الكريم نجد مملوءا بالمحاسن والبلاغة ولكننا نتلوه في الغالب تلاوة تعبد بدون نظر في حقائق معانيه وتاريخه . والا تأمل قوله « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » تجد في هاتين الكلمتين من البلاغة والفصاحة ما لم يأت بمثله غابرييل هانوتو على ما هو عليه من الاقتدار في الادب والعلم والسياسة والجرية الفرنسية . وما

ادراك ما الحرية الفرنسية - هي الحرية التي انقذت امماً كثيرة من الظلم الاستبداد . وجل ما اتي به في الخطبة التي خطبها اخيراً في الجزائر عن سياسة الاستعمار في افريقية وما يجب على الدولة المتقدمة في جانب اهلها المسلمين قوله « يجب لهم علينا الامن ، يجب لهم علينا العدل ، يجب لهم علينا كذلك التساهل » أي بالدين . وقد نشر ملخص هذه الخطبة في جريدة طرابلس الشام في نيسان هذه السنة . فتقابل بين تلك الكلمات وبين هذه الكلمات اثلاث وحكم ضميرك الحر ان كنت من الاحرار واحكم بعد ذلك بما شئت . لو قرأنا القرآن وفهمناه كما ينبغي لوجدنا فيه مقاومة شديدة للظلم والاستبداد وميلاً زائداً للعدل والحرية . ولقد رفع الاستبداد بسببه يوماً ولكن الامم الاسيوية والافريقية اُبت الخروج من تحت نير العبودية . أو كما عبر أحد الافاضل بقوله « لما ساد عليهم الجهل ولم يستطيعوا ان يصعدوا الى القرآن بحقوقهم أنزلوه من مكانه الرفيع ووضعوه مع جهلهم في مستو واحد »



وبظهور الاسلام ظهرت طبقة جديدة من الادباء قيل لهم اهل الطبقة الاسلامية وهم الذين كانوا اُصدر الاسلام وأيام الدولة الاموية التي امتدت الى سنة ١٢٩ هـ وفي أوائل الدولة العباسية وسمي المتأخرون منهم شعراء الدولتين الاموية والعباسية ولخص حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم الطريقة المثلى في الشعر بقوله :
 وانما الشعر عقل المرء يعرضه على البرية ان كيسا وان حقا
 وان أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا
 وفي مقدمة هذه الطبقة عمر بن أبي ربيعة كبير قريش وكان له في الشعر مقامات عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجباً به ومنهم الخطيئة العبسي المشهور في المهجاء وحكم عليه بقطع اللسان في خلافة عمر (رضه) ثم عفا عنه . وكان جرير والفرزدق والاختل من أعظم شعراء الدولة الاموية وحصل بينهم محاورات ومهاجاة وكان لكل منهم فرقة من الناس تفضل شعره وتطرب لقوله وتتمصر لرأيه وكثيراً ما كان يفضي بينهم الجدل على

تفضيل الشعر الى القتال . والمشهورين الادباء ان جرير مرجح على الفرزدق في اكثر أنواع الشعر وعلى الاخطل في جميع أنواعه . وكان الفرزدق والاخطل متمقين على هجاء جرير ومعاداته . واستخرج المستشرق بوشه من مكتبة جامع ايا صوفيا بالاستانة ديوان الفرزدق وطبعه وحشاه وترجمه للفرنساوية وحرر شيئاً عن عروة ابن الورد ايضاً . ومن عاصر الفرزدق غيلان ذي الرمة الشثني صاحب مي بنت مقاتل . ومن هذه الطبقة نصيب و بشار المتوفى سنة ١٦٧ هـ وهو القائل « والاذن تمشق قبل العين أحياناً » وكثير غيرهم ويجمع كلامهم كتاب الاغانى الذي ألفه ابو الفرج الاصفهاني المتوفى سنة ٣٥٦ هـ . وكان من نسل مروان الحمار آخر ملوك بني امية وكتابه هذا مطبوع في بولاق . ومختصره اي رواياته مطبوع في بيروت . ومن اشتهر بالثر وكتابة الرسائل عبد الحميد الكاتب وكان كاتباً لمروان الحمار فمات منكوباً حينما انقضت الدولة الاموية . وجمعت رسائله في كتاب

فأهل هذه الطبقة وان نسجوا على منوال شعر الجاهلية فكلامهم اعلى طبقة في البلاغة واذواقها من كلام الجاهلية في منظومهم ومنثورهم وخطبهم وترسيهم ومخاوراتهم الملوك . والسبب في ذلك حصول الانقلاب في الامة وتأسيس الملك والدولة وتوسع حدود المملكة بالفتوحات واختلاط الاقوام بعضها ببعض فأتسعت بذلك دائرة العقول ونهضت طباع اهل الطبقة الاسلامية وارثت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأرصف مبنى وأعدل ثقيفاً بما استفاده من انفتاح الذهن وتوسع دائرة الفكر وبما سمعوه من الكلام العالي الطبقة في القرآن والحديث

ثم حصل انقلاب كبير في الامة وقامت الدولة العباسية مقام الدولة الاموية وترجمت كتب العلم والحكمة عن خمس لغات أعجمية وهي

(١) الفارسية والبهلوية

(٢) الهندية والسفسكريية

(٣) السريانية

(٤) العبرانية وسمي المترجم عنها بالاسرائيليات

(٥) اليونانية

وعكف أهل العلم والفضل على النظر في هذه الكتب ونقلوا للعربية شيئاً قليلاً من أدب اللغات الاعجمية وكان في مقدمة الناقلين ابن المقفع (١٠٩ - ١٤٥ هـ) واسمه عبد الله بن داذه وأصله من مجوس الفرس أسلم ودخل في خدمة عيسى بن علي عم السفاح أول الخلفاء العباسيين . واشتهر ابن المقفع بالفصاحة والبلاغة حتى قيل بانه الف كتاباً يعارض فيه القرآن كما فعل المتنبي . قال الباقلاني : فليس يوجد له كتاب يدعي مدح انه عارض فيه القرآن بل يزعمون انه اشتغل بذلك مدة ثم مرق ما جمع واستحي لنفسه من اظهاره . الخ . ثم ذكر له الدرّة اليتيمة وقال انهما كتابان أحدهما يتضمن حكماً منقولة عن كتاب بزجرهم في الحكمة والآخر في شيء من الديانات وقد تهوس فيه بما لا يخفى . آه

على ان الكتاب المشهور لابن المقفع هو كتاب كايلا ودمنة المطبوع في بيروت وهو قصة أدبية فلسفية سياسية أول من وضعها أحد أدباء الهند وفلاسفتها ويدعى بيدبا أو بيدباثي وحررها باللغة الهندية فترجمت عنها الى اللغة البهلوية على عهد أنوشروان ثم جاء ابن المقفع وترجمها للعربية نثراً . ثم ظهر على عهد هارون الرشيد ابان بن عبد الحميد من شعراء العرب وانتسب للبرامكة وعمر بانعامهم ونظم لهم كتاب كايلا ودمنة فقال بعد المقدمة

هذا كتاب أدب ومحنة وهو الذي يدعى كايلا ودمنه

فيه احثيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

وكان له نظر جيد في العلم والحكمة ونظم قصيدة فلسفية في مبدأ العالم نسبت لابن الغتاهية . وكان أبو نواس يأف من مشاعرتة لان كلامه كلام فلاسفة وحكماء لا كلام شاعر أديب متخصص بعلم الادب . واسترحم ابان بن عبد الحميد يوماً من يحيى بن خالد البرمكي بادخاله على الرشيد وعرض أشعاره عليه فأشار عليه يحيى بنظم قصيدته

السياسية التي قال فيها

نشدت بحق الله من كان مسالماً اعم بما قد قاتته العجم والمرب
اعم رسول الله أقرب زلفة لديه ام ابن العم في رتبة النسب
وأيهما أولى به وبعهده ومن ذاله حق التراث بما وجب
فان كان عباس أحق بتكم وكان علي بعد ذاك على سبب
فأبناء عباس هم يرثونه كما العم لابن العم في الارث قد حجب
فلما سمعها الرشيد تهلل وجهه بالبشر وأنعم على الشاعر بعشرين الف درهم
ثم ظهر سهل بن هارون الكاتب وصنف للمأمون كتاب قلبه وعفوه يعارض به
كتاب كليلة ودمنة في أبوابه وأمثاله ويزيد عليه في حسن نظمه . ثم جاء ابن الهبارية
واسمه الشريف أبو يعلى محمد بن محمد ونسبه يتصل بعبيد الله بن عباس رضي الله عنه .
وكان ابن الهبارية من شعراء نظام الملك وزير الب ارسلان ثم اتسب لابنه ملكشاه
ومدحهما بقصائد ونظم كليلة ودمنة وسماه نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة وله كتاب
آخر على هذا الاسلوب سماه الصادح والباغم ونظم فيه الفى بيت . وأشعاره سلسلة
سهلة ومنها :

يقول أبو سعيد اذ رأني عفيفاً منذ عام ما شربت
على يداي شيخ تبت قل لي فقلت على يد الافلاس تبت

توفي سنة ٥٠٤ هجرية

وُترجم غير كتاب كليلة ودمنة من لغات الاعاجم أمثال لقمان الحكيم ولطائف
الوزراء ولطائف الملوك وكثير من النصائح والمشورات السياسية والادارية وشيء
من كتاب زرادشت وكتاب ماني - قال المسعودي في مروج الذهب « وانتشر
بأيدي الناس في ذلك الوقت كتاب أصله من بلاد العجم واسمه الف ليلة وليلة غير
ان حكاياته لا تشبه حكايات الكتاب المعروف بهذا الاسم المتداول بيننا » واشتهر في
الكتابة والانشاء أيضاً الجاحظ (١٦٥ - ٢٥٥ هـ) وهو أبو عثمان الكنانى الليثى
البصري وله طريقة في الانشاء يقال لها طريقة الجاحظ كما ان له مذهبا في الفلسفة

وقيل لاتباعه الجاحظية . وله مؤلفات كثيرة في الادب منها كتاب البيان والتبيين وكتاب الامصار وكتاب الحيوان وقد اخصر المؤلف هذا الكتاب الاخير ويوجد نسخة من المخصر في مكتبة اسكور يال باسبانيا وهي التي طبع فهرست كتبها المستشرق الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ . ويوجد نسخة أصلية من كتاب الحيوان في مكتبته هامبورغ . وقد سلك مسلك الجاحظ وأخذ طريقته ولم يقصر عنه أبو الفضل محمد بن العميد (توفي ٣٦٠ هـ) وكان مؤدباً لعضد الدولة ومن أعظم وزراء آل بويه وله رسائل كبيرة وأشعار وكتاب « الخلق والخلق » لم ينقحه . وأثنى عليه الباقلاني فقال : انه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهب الجاحظ ويكلمها على شروط صنعه ولا يقصر على ان يأتي بالاسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعله في كتبه متى ذكر من كلامه سطرًا اتبعه من كلام الناس أوراقًا واذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً . وكان ابن عباد وزير فخر الدولة يصحب أبا الفضل بن العميد ولذا قيل له الصاحب بن عباد

ومن اشتهر من الشعراء أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (١٩٠ - ٢٣١ هـ) وهو ميال للتصنع والتكلف والتعويض في المعاني وأحسن ما ألفه كتاب الحماسة وهو مخنار من كلام الشعراء المتقدمين . ومطبوع وله أيضاً كتاب فحول الشعراء وكتاب الاختيارات . ومنهم أبو نواس (توفي ١٩٥ هـ) وله سبك جيد وحلاوة ورقة . ومنهم ابن الرومي وابن المعتز وأشعرهم البحتري (٢٠٤ - ٢٨٤ هـ) وفضله الباقلاني على جميع أهل عصره لبهجة كلامه وبديع روثه وديباجة شعره وكثرة مائه . وقال المعري : أبو تمام والمثنبي من الحكماء وأما الشاعر فهو البحتري . قتلوا والبحتري يغير على أبي تمام اغارة ويأخذ منه صريحاً وإشارة ويستأنس بالأخذ منه بخلاف ما يستأنس بالأخذ من غيره وقد طبعت الموازنة بينهما في مطبعة الجوائب

وكان الخلفاء والرؤساء يشوقون شعراء الطبقة الاسلامية ويجيزونهم بأعظم الجوائز كما يفعل في يومنا الا فرنج ولو كان فعلهم مقيداً بالقواعد والنظامات فان الاكاذيبات تحكم في كل سنة بتوزيع الجوائز النقدية التي تقرر صرفها نظارة المعارف

أو يتبرع بها أصحاب الخير ومحبو العلم من ذوي الثروة . فهذا الامر شائع بينهم وله دائماً ذكر في جرائدهم . وكان للخلفاء معرفة ببنون الادب وتبصر بجيد الكلام ورديته ويحفظون أرقاماً كثيرة ويعانون النظم والنثر لتقوى ملكتهم في اللغة حتى اذا رقوا منابر الخطابة أو تكلموا في صدور المحافل تمكنوا من استمالة الناس اليهم واتفوا بين قلوبهم كما يفعل ملوك الافرنج في زماننا ولا سيما خطيبهم الشهير امبراطور المانيا فانه من أبلغ الخطباء في الملوك . وهكذا كان الخلفاء يستجلبون القلوب ببلغ الكلام لا بجد الحسام . وظهر في ذوي الرياسة فحول من الادباء مثل ابن الخليفة العباسي المعتز بالله بن المتوكل واشتهر بابن المميز (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) وتولى الخلافة يوماً واحداً وقتل وهو أفضل شعراء بني هاشم . ومثل أبي فراس الحمداني ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة من آل حمدان المنتسبين لبني تغلب من قبائل العرب وامتدت حكومة آل حمدان في حلب والموصل نحو ٦٠ سنة . ومن شعر أبي فراس الحمداني قوله :

نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي وما أنا مداح وما أنا شاعر

وطبع ديوانه في بيروت وكان المتنبي يفضلُه على نفسه

ومن اشتهر في الادب أبو بكر الخوارزمي وبديع الزمان الهمداني وكلاهما من أدباء القرن الرابع للهجرة ونشرت الجوائب رسائلهما . ونسج الحريري على منوال الهمداني في تأليف مقاماته المشهورة ولم تزل تدرس في الصوريون وقد شرحها شيخ المستشرقين في فرانس سلفيستر دوساسي . وينتقد عليها أدباء الافرنج من جهة قصر المقامات وعدم اعناء المؤلف في تصوير الحكايات وتشخيصها على نسق ما ألفه الافرنج أو اليونان قديماً وإنما صرف الحريري عنايته الى سبك الالفاظ وتصنيعها . وكانت ولادته في البصرة ثم نفي الى مشان بقرب البصرة (٤٤٦ - ٥١٥ هـ)

ومن المعلوم ان ايراد خلاصة تاريخ أدب اللسان العربي وذكر المشاهير من الادباء وتعيين طبقاتهم ليس بالامر السهل . ولذا نكتفي بالإشارة الى بعض من دون أخبار الشعراء . فمنهم ابن قنينة المروزي (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) صاحب « أدب الكاتب »

وله «ديوان الكتاب» و «طبقات الشعراء» وغير ذلك . ومنهم المبرد الأزدي (٢١٠ - ٢٨٦ هـ) وله كتاب الكامل والمقنضب والروضة . ومنهم ابن المنجم (٣٤١ - ٣٠٠ هـ) وكان أبوه من كتاب المأمون ومن نسل يزيدجرد آخر ملوك فارس فألف هو في تاريخ الادب كتاب الباهر أو البارع في أخبار الشعراء . ثم جاء أبو منصور الثعالبي (٣٥٠ - ٤٢٩ هـ) وهو عربي النسب نيسابوري المولد وكان يحترف بعمل فرآء الثعالب فوضع للكتاب المذكور ذيلاً في ٤ مجلدات سماه «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» وجمع فيه أخبار شعراء زمانه ونواديرهم وأشعارهم . ثم جاء أبو الحسن علي البخارزي نسبة لبخارز ناحية بالقرب من نيسابور بخراسان وكان من ذوي المراتب العالية وأهل الديوان وتوفي مقنولاً سنة ٤٦٧ هـ فحرر ذيلاً ليتيمة الثعالبي سماه دمية القصر وعصرة أهل العصر ومنه نسخة في الاستانة . وزاد عليه أبو الحسن بن زيد البيهقي - وبيهق ناحية بالقرب من نيسابور أيضاً - ذيلاً سماه وشاح الدمية ثم جاء عماد الدين الكاتب الاصفهاني (٥١٩ - ٥٩٧ هـ) وزير السلطان صلاح الدين الايوبي وألف كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ومنه نسخة في الاستانة وأخرى في باريس وفيه تراجم الشعراء وأشعارهم من سنة ٥٠٠ الى سنة ٥٧٢ هـ وألف أيضاً كتاب السيل على الذيل وجعله ذيلاً لخريدة القصر . ثم جاء الوراق وهو أبو المعالي سمد بن علي الانصاري المتوفى سنة ٥٦٨ هـ وذيل ما تقدم بكتابه زينة الدهر وعصرة أهل العصر

فهذه المدونات من أهم الاجزاء في تاريخ الادب العربي ويمكن اتمامها باختيار مايروق من مؤلفات أبي شامة (٥٩٦ - ٦٦٥ هـ) وأبوه المقدسي . نشأ هو في مصر وكتابه «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» يدرس في الصوروبون وطبع في مصر . ومن مؤلفات الكاتب الدمشقي (٧٠٠ - ٧٥٩ هـ) وكتابه مسالك الابصار في الممالك والامصار لا يقتصر على التاريخ والجغرافيا بل فيه كثير من التراجم أيضاً ومجلداته نحو ثلاثين وقيل أربعين وهو مرقم في كتبخانة أيا صوفيا في الاستانة من عدد ٣٤١٥ الى ٣٤٣٩ ومنه نسخة في مكتبة

باريس الاهلية واهمهم جارية في طبعه . ولما كنت في الصيف الماضي بالاستانة
شاهدت في كتبخانة الكوبرلي أحد المستشرقين من الانكاز يستنسخ بالالتصوير
الشمسي كتاباً كبير الحجم حسن الخط ليس فيه من التراجم الاحرف العيين فسأت
فاذا هو « ارشاد الالباء في معرفة الادباء » تأليف ياقوت الحموي الرومي (٥٧٤ -
١٨٦٦هـ) صاحب معجم البلدان الذي طبعه المستشرق ووستنفلد في ايزيك سنة ١٨٦٩
في أربعة مجلدات وطبع حاشية له في مجلد خامس . وللحموي من المؤلفات النافعة معجم
الادباء ومعجم الشعراء وكتاب اخبار المتنبى وعنوان كتاب الاغاني ومجموع كلام أبي
علي الفارسي . . . فاذا كان حرف العيين من ذلك السفر الجليل لم يكمل في مجلد ضخيم
فما بالك في بقية اجزاء هذا الكتاب . ومما يمكن مراجعته من الكتب في هذا الموضوع
زهوة الالباء في طبقات الادباء لمحمد بن شاكر الانباري ونسخته في الاستانة . وكتاب
ريحانة الالباء المطبوع في بولاق . ونفحة الريحانة في طبقات الشعراء الهجري ووفيات
الاعيان لابن خلكان وفوات الوفيات للكتبي والوفائي بالوفيات لصلاح الدين
ابن بيك الصفدي وأعيان العصر واعوان النصر له أيضاً . ثم تاريخ المحبي في أعيان
القرن الحادي عشر والمرادي في أعيان القرن الثاني عشر . وهكذا ينتهي الباحث
الى العصر الذي نحن فيه فيجد شيئاً من آثار المعاصرين في الجزء الاول من عكاظ
الادب المطبوع في الاستانة عقب الحرب مع اليونان . وقد استعار صاحب عكاظ وهو
أبو النصر السلاوي باشا لكل واحد من شعراء العصر لقباً من القاب المتقدمين
وسمى به أصحاب معلمات هذا القرن الرابع عشر للهجرة . فأمرؤ القيس الثاني لقب
الاشراف السيد توفيق افندي البكري . وأبي العلاء الثاني للاستاذ عبد الجليل افندي براده
المدني ونابغة العراق لجميل افندي الزهاوي ونابغة مصر لاحمد بك شوقي وزهير البلاغة
لمحمد ولي الدين بك يكن . وصاحب المعجز لاحمد محرم افندي وحسان الموصل
لشاعر العراق عبد الباقي افندي العمري وشيخ الادبا لاحمد عزت باشا الفاروقي
الموصللي ولبيد العصر للفياسوف يوسف ضياء الدين باشا الخالدي . ودريد الحكم لحسن
حسني باشا الطويراني وأبو الثناء للشيخ محمود قباد والتونسي

وأما اللغويون والنحاة فأحسن جامع لاخبارهم ما ألفه جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ وسماه « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » ورأيت نسخة منه في مكتبة يكي جامع وهي عند الجسر في الاستانة العلية . وطبع في مصر وسوريا وأوروبا كثير من مؤلفات الاصمعي وابي زيد الانصاري البصري وأبي عبيده النحوي وابن السكيت وغيرهم من اللغويين الافاضل



لما حدث الانقلاب الكبير في انتقال الخلافة الاسلامية من الامويين الى العباسيين وترجمت كتب العلم والحكمة الى لسان العرب قرأ أدباء المسلمين كتاب المنطق لأرسطو ورأوا فيه ذكر اوميروس الشاعر والثناء عليه فلم يحفلوا بشعره ولا بشعر أحد من الاعاجم ولا التفتوا الى أساطير اليونان ولا لما وضعوه من الروايات الشخصية ولا قدروا حرية فكرهم ولا ذوقهم في الكلام حتى قدره . لاشتغالهم عن ذلك بما لديهم من فنون الشعر وانواع الخطب والرسائل والدواوين والمعلقات سيما ما أدهشهم من كلام الحديث والقرآن فترجموا كتب المنطق والنجوم والطبيعات والطب والهندسة ولكنهم لم يترجموا لاديب من أدباء اليونان ولا أدباء الرومان لا قصيدة ولا خطبة ولا رواية ولا حكاية من حكايات أساطيرهم . ولعلمهم خافوا على الناس من الرجوع الى عبادة الاوثان ان يحشوا لهم في آلهة اليونان . ومع ذلك فترجمة كتب العلم والحكمة الى لسان العرب ظهر لها تأثير في توسيع أفكار الشعراء الاسلاميين وظهر فيهم طبقة جديدة هي طبقة المتنبي والمعري في الشرق وابن هاني في اشبيلية وهو المسمى بمتنبي الغرب . فحيث كان لاهل هذه الطبقة نظر في كتب العلم والحكمة فكلامهم ابلغ معنى واكثر فوائد لاشتماله على آراء فلسفية وسياسية ومباحث عقلية وعلمية غير انهم خرجوا عن أساليب الشعر القديم ووضعوا من عندهم أساليب مخصوصة . فقام عليهم المتمصبون لاساليب العرب الاقدمين ولسقوهم بالسنة حداد وشددوا عليهم النكير كما فعل أصحاب طريقة كلاسيك مع فيكتور هوغو حينما شهر طريقة (رومانتيك)

فالتمسكون بالاساليب القديمة من ادباء العرب يقولون ان نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على اساليب العرب المخصوصة اذ ليس كل كلام منظوم عند العرب يسمى شعراً . بل الشعر هو « الكلام المبالغ في المبنى على الاستعارة والافصاف ، المفصل باجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على اساليب العرب المخصوصة » فلا بد ان تجتمع هذه القيود في الكلام المنظوم حتى يسمى شعراً . فما خلا عن الاستعارة والافصاف مثل منظومات المتون العامة المدرسية والارجوزات الاخلاقية وقول العاصم (أغلق الباب واتني بالطعام) أو ما خلا عن تساوي الاوزان واتحاد الروي كقولهم (رب أخ كنت به مغتبطاً اشد كفى بعري صحبته تمسكاً مني بالود ولا أحسبه يغير العهد ولا يحول عنه أبداً فخاب فيه أملي . . .) لان الوزن لم تتساو اجزأؤه في الطول والقصر والسواكن والحركات . أو لم يجز على اساليب العرب المعروفة فهو حينئذ لا يكون شعراً وانما هو كلام منظوم . اما الاسلوب في عرفهم فهو القالب الذي يفرغ فيه الشعر او المنوال الذي ينسج عليه . وذلك انهم يقولون اذا أراد الطالب قرض الشعر ينبغي له ان يكثر من مطالعة أشعار العرب الاقدمين وان يحفظها ويرتاض فيها حتى تصير له ملكة في كلامهم فيحتمل يحصل في ذهنه قالب كلي من التراكيب التي رآها في كل شعر من أشعارهم وهذا القالب الكلي ينطبق على جميع تلك التراكيب فسؤال الطلوع قالب كلي يكون بخطاب الطلوع كقوله (يادارمية بالملياء فالسند) ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله : (قفنا نسأل الدار التي خف أهلها) أو باستبكاء الصحب على الظلم كقوله : (قفانبك من ذكري حبيب ومنزل) او بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله (ألم تسأل فتبرك الرسوم) . وكذا تحية الطلوع قالب كلي يكون بالامر لمخاطب غير معين بشحيتها كقوله (حي الديار بجانب الغزل) او بالدعاء لها بالسقيا كقوله :

اسقى طولهم اجس هذيم وغدت عليهم انصرة ونعيم

او بسؤاله السقيا لها من البرق كقوله
يا برق طالع منزلاً بالبرق واحد السحاب لها حذاء الانيق
وكذا التفجع في الجزع قالب كلي يكون باستدعاء البكاء كقوله
كذا فليجل الخطب وايقذع الامر وليس لعين لم يفض ماؤها عنذر
او باستعظام الحادث كقوله (ارأيت من حملوا على الاعواد)
او بالتسجيل على الاكوان بالمصيبة لفقده كقوله
منابت العشب لا حام ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع
او بالانكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية
ايا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن ظريف
او بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله
لقى الرماح ربيعة بن نزار اودى الردى بفريقك المغوار
وامثال ذلك فمن اراد قرض الشعر كان هو كالبناء او النساج والصورة
الذهنية المنطبقة في ذهنه كالقالب الذي يبنى فيه او المنوال الذي ينسج عليه . فان
خرج عن القالب في بنائه او عن المنوال في نسجه كان فاسداً . ولذا رأى اهل
الذوق في قول الشاعر :

لم ادر حين وقفت بالاطلال ما الفرق بين قديهما والبالى
كلام فقيه لقوله ما الفرق بين قديهما لان هذا من تعبيرات الفقهاء واصطلاحاتهم
لا من تعبيرات الادباء مع ما فيه من الوقوف بالاطلال فلم يستحسن اهل الذوق
هذا البيت ولا وجدوا فيه رقة ولا بهجة ولا ماءً ولذا لم يستحسنوا في الادب كلام
الفقهاء ولا الفلافة مع ما في كلامهم من المنطق والحكمة الخلوه عن هذا النور الذي
يتألق في كلام الادباء ويخرج من نفس الاديب ومن قلبه وروحه . واما كلام الفقيه
او الفيلسوف فيخرج من عقله ومحاكمته ومقايسته فهو وان كان برهانه قاطعاً الا ان
تأثيره على النفوس اقل من تأثير كلام الاديب . ومن كثرة حفظهم لاشعار المتقدمين
رسخت لهم ملكة في كلامهم حتى كاد ذوقهم يعجز الاسماء التي لم ترد في اشعار

الجاهلية . روي ان جرير انشد بعض خلفاء بني امية قصيدته
 بان الخليط برامتين فودعوا او كما جدوا لبين تجزع
 كيف العزاء ولم اجد منذ بنتم قلباً يقر ولا شراباً ينفع
 قال وكان الخليفة يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله
 وتقول بوزع قد دبت على العصا هلا هزيت بغيرنا يا بوزع
 فقال الخليفة افسدت شعرك بهذا الاسم . لان سماع الاديب لم يألف اسم
 بوزع كما الف هندومي او فاطم التي مشى بها امرؤ القيس حتى اجاز ساحة الحبي
 وهي تجر اذيال المرط الموشى بالذهب ولا مشية فيكتور هوكو بمشوقته جوليت في
 مراقص باريس ومراستها . ولم يزل الادباء يبنون كلامهم في ذلك القالب وينسجونه
 على ذلك المنوال حتى يومنا هذا كما فعل اصحاب المعانيات السبع التي نشرها صاحب
 عكاظ . وكلامهم السبع التي خصت بكرامة التعليق هي :

كلمة نقيب الاشراف السيد توفيق افندي البكري ومطلعها
 اما ويمين الله حلقة مقسم لقد قت بالاسلام عن كل مسلم
 وكلمة عبد الجليل افندي براده المدني
 كذا فليكن ما يحرز المجد والفخر كذا فليكن ما يجمع الفتح والنصر
 وكلمة جميل افندي الزهاوي البغدادي
 هو الفتح التي في قلوب المدى هولا واثبت ان الحق يعلو ولا يعلى
 وكلمة احمد شوقي بك المصري
 بسيفك يعلو الحق والحق اغاب وينصر دين الله ايان تضرب
 وكلمة محمد ولي الدين بك يكن المصري
 ابت ضيها في الناس كيف اضيها حياة تساوى بؤسها ونعيمها
 وكلمة احمد محرم افندي المصري
 منازل سلمى لاعدتك الغائم ولا درست بالجزع منك المعالم
 وكلمة ابي النصر السلاوي باشا المصري

على مثالها فلتحمد المهمم الفر فما هي الا الحرب اعقبها النصر
فالمتنبي والمعري خرجا عن هذا القالب وذلك المنوال الذي وضعه شعراء الجاهلية
وجعل كل منهما له مذهبا مخصوصا في الادب وأساليب معروفة في الشعر. ولذا قال ابن
خلدون « وكان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون ان نظم
المتنبي والمعري ليس هو من الشعر في شيء لانهما لم يجريا على أساليب العرب »
وبعد ان كان حسان يقول

وان احسن بيت أنت قائله بيت^ه يقال اذا انشدته صدقا

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول كان زهير لا يمدح الرجل الا بما فيه -- صار
أهل هذه الطبقة من الشعراء المستنيرين بنور ما ترجم من كتب العلم بمدحون
باشعارهم امرأء العجم الذين لا يفقهون دقائق البلاغة العربية طالبين معروفهم فقط
لا سوى ذلك من الاغراض كما فعله حبيب والبحتري والمتنبي وابن هاني ومن
بعدهم . فان حبيبا الملقب بأبي تمام ولد في قرية بجوار دمشق ونشأ في مصر وطاف
الشام والعراق وخراسان ومدح الخلفاء والملوك والامراء بقصائد كثيرة . والبحتري
ولد في قرية بجوار حلب ثم ذهب لبغداد ومدح الخليفة المتوكل ثم طاف بلاد
الشام ومدح الامراء واجتمع في حمص على أبي تمام . والمتنبي ولد في الكوفة وأبوه
سقاء من قبيلة جعف فجاء دمشق ومدح سيف الدولة من آل حمدان ثم ذهب لمصر
ومدح كافور الاخشيدي الخصي الاسود ثم ذهب لبغداد وخراسان ومدح عضد
الدولة من آل بويه وغيرهم وهو ممن حاول ان يأتي بمثل القرآن كابن المقفع ولكنهما
عجزا وأبطلا ما كتباه ولذا هجا بعضهم المتنبي فقال

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشيا

عاش حينا يبيع في الكوفة الماء وحيناً يبيع ماء الحيا

وكذا ابن هاني متنبي الغرب ولد في اشبيلية وطاف بلاد افرريقية ومدح أمراء

البربر وهو القائل في المعز لدين الله

ما شئت لا ما شأت الاقدار فأحك فأنت الواحد القهار

فصار عرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للاولين وصار يقال احسن الشعر اكذبه . وقلد شعراء العرب المعجم في مبالغاتهم وغلقهم للامراء دفماً للشراء واستجداءاً للاحسان والخير . واستبد الرؤساء بالامر وقويت فيهم الشوكة والسلطة فلم يبق بهم لاستعمال فن الخطابة وطلاقة اللسان لاجتذاب قلوب الامة اليهم بل رأوا من المصلحة الذاتية قهرهم بالقوة وارهابهم بحد السيف فاستخفوا بالامة وبالرأي العام وقلوا بقول المتنبي

السيف اصدق أبناء من الكتب

وبقول عمارة اليميني السيامي

وشفرة السيف تستغنى عن القلم^(١)

وفعلوا بالامة ما قاله لها الحجاج سابقاً « لا عصبتكم عصب السامة وألحونكم لحو العصا ولا ضربتكم ضرب غرائب الابل يا أهل العراق . يا أهل الشقاق والنفاق . ومساويء الاخلاق . اني والله سمعت لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به الله في الترغيب . ولكنه التكبير الذي يراد به التهريب . يا عبيد العصا واشباه الآماء انما مثلي ومثلكم ما قاله ابن بركة الهمداني :

وكنت اذا قوم غزوني غزوتهم فهل انا في ذا يا أهل همدان ظالم

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وانفاً حياً تجتنبك المظالم »

وقال المعتضد عند وفاته في سنة ٢٨٩ هـ وهو سادس عشر الخلفاء العباسية وعلوه

(١) والشطرة الاولى (العلم مذ كان محتاج الى العلم) او (العلم اول محتاج الى

العلم) وهو مطلع قصيدة حرض فيها شمس الدولة على تملك اليمن ومن آياتها المتلهية تلهب الجمر قوله :

ان المعالي عروس غير وائمة ان لم تخلق ردائها برشح دم

ومها : وكان اول هذا الدين من رجل سعى الى ان دعوه سيد الامم

وقد طبع ديوانه الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ سنة ١٨٩٧ مع كتابه التكت العصرية

في اخبار الوزراء المصرية

ندم على هذا الاستبداد :

ولا تأمن الدهر اني امنته فلم يبق لي خلاً ولم يرع لي حقا
 قتلت صناديد الرجال ولم ادع عدواً ولم امهل على طغيه خلقا
 واخليت دار الملك من كل نازع فشردهم غرباً ومزقتهم شرقا
 فلما بلغت النجم عزاً ورفعةً وصارت رقاب الخلق اجمع لي رقا
 رماني الردى سهماً فأخذ جمرتي فها انا اذا في حفرتي عاجلاً القى

ولكن الرؤساء من الاعاجم فعلوا فعلاً بلاقول لعجمة لسانهم وأصبح تعاطي
 الشجر هجنة في الرئاسة ومذمة لاهل المناصب الكبيرة وقدموا الجهلاء على الشعراء
 ودعوهم بالظرفاء واهملت فنون الادب وبلغ التفريط في جانب الفصاحة اللسانية الى
 درجة كاد فيها الرؤساء لا يفوهون بكلمة في المجالس ويعتبرون السكوت عين
 الادب واذا اجتمعوا في حفلة اكتفوا بسماع الدعاء المأثور . وكثيراً ما يتلوه اجهل
 المجتمعين ويكون قد حفظ الدعاء من الصغر بالسمع

شاهدت أحد الولاة الخدع بمن يتلو الدعاء المأثور وظنه من العلماء لطول لحيته وكبر
 عمته فاراد تعيينه في منصب فقيل له امي فلم يصدق ودعاه ليلة وطلب منه ان يقرأ
 عليه ما كتبه جريدة الجوائب اذ ذلك فلما أمسك الجريدة بالعكس فهم الوالي وتلاهي
 عنه ولم يعينه . ولقد دقق في هذا البحث عبد الرحيم افندي احمد مبعوث مصر في
 مؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ ووجد نسبة تامة بين
 الحرية وبين ارتقاء لسان العرب فكلمها اتسع نطاق الحرية في الدولة اتسع معه نطاق
 الادب في العربية وزادت فصاحة هذا اللسان وبلاغته وكلما زاد الاستبداد تقيدت
 عقول الادباء بالسلاسل وصاروا ينطقون بما يوافق الزمان والمشرع لا بما يشعرون به
 ويعلمونه ويرونه

قال مبعوث مصر المشار اليه ولقد لاحظت في المتكلمين بلسان العرب ان الحرية
 اذا فقدت منهم كثر في كلامهم تكرار (اللازمة) مثل نعم فاهم هكذا احلم ياسيدي
 الخلاصة النتيجة وأمثال ذلك من الكلمات التي يرددونها المتكلم . هذا في المحادثات

بين اثنين وأما في الاجتماعات العمومية كالافراح والعزاء واستقبال الولاة والقضاة فاما ان ينقضي الاجتماع بالسكوت والهمس او بتلاوة الدعاء المأثور وان جعل الادب حرمة فيتلى في ذلك الاجتماع تصيدة مدح او تبريك او عزاء وينفض الجمع بغير ان يفوه الرئيس بما يقنضيه الحال والمقام ويصور بكلامه حالة تلك الهيئة المجتمعة



أما أهل الاندلس فلما وجدوا في جزيرتهم سماء صافية وأرضاً طيبة وهواءً نقياً وأشجاراً مزهرة وأنهاراً جارية وجبالاً راسية وسهولاً واسعة اتسعت افكارهم واستبحر عمرانهم وراقت أشعارهم ورقت معانيهم وتهدت فنون الشعر ومناحيه في قطرهم وبلغ التنميق فيه الغاية وكثر فيهم الادباء والشعراء . فوسعوا دائرة الادب ونظموا الشعر في جميع الاعاريض المعروفة عند العرب وأتوا بالمطولات في جميع مذاهب الشعر واغراضه من نسيب ومدح ورتاء وهجاء . ثم لم يكتفوا بكل هذا بل وجدوا الزمان والمكان يقنضيهما فنون جديدة من الشعر يفسح على منوال غير المنوال الذي وضعه عرب الجاهلية ويقرض في عروض غير عروضهم فغيروا اسلوب الشعر وعروضه كما فعل فيكتور هوكو وأهل طبقته في تغيير عروض الشعر الفرنسي . واستحدث المتأخرون من الاندلسيين الموشح والزجل والمربع والخمس والمعصب على أربعة أجزاء والمزدوج والكارمي والمعبدة والغزل وعروض البلد والاصمقيات والخوراني والمواليا والدويت وهما لأهل الشرق وغير ذلك من التفنن الذي لا يدخل تحت حصر . فأول من وضع الموشح مقدم بن معافر الضريري من شعراء الامير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله احمد بن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٤٨ هـ) صاحب كتاب العقد الفريد . وقد انتشر هذا الكتاب انتشاراً عجيبياً ولم أدخل مكتبة من مكتبات الاستانة الا واجد فيها نسخة أو أكثر من هذا المؤلف ثم شاع استعمال الموشح

(١) في الاستانة ما يقرب من الخمسين مكتبة تختلف في الجسامه والاهمية ومجموع ما فيها من الكتب اقل من ثمانين ألفاً بقليل وكتب فهرستها مطبوعة ولكن فيها خطأ

في الاندلس واستظرفه الناس ونظم فيه كثير من الادباء ونسج على منوالهم أدباء الشرق وطبع كثير من الموشحات واشتهر . فمنها ما نظمه الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الاندلس والمغرب . وكان معاصراً لابن خلدون وكأنه ندب حضارة الاندلس بمطالع هذا الموشح حيث قال

جادك الغيث اذ الغيث هما يا زمان الوصل بالاندلس
لم يكن واصلك الا حملاً في الكرى أو خلسة الخنثس
ومن أبدع ما أتوا به في الموشحات قول بعضهم
كحل الدجى يجري من مقلة الفجر على الصباح
ومعصم النهر في حلال خضر من البطاح

ثم نسج أهل الامصار على منوال الموشح ونظموا مثله بلغتهم الحضرية من غير التزام اعراب وسموا هذا النوع من الموشح بالزجل وأول من أبدعه أبو بكر بن قرمان ومع انه قرطبي الدار كان يتردد كثيراً الى اشبيلية مركز الادباء ومجمع الظرفاء وهي على نهر الوادي الكبير تشبه حص الفريية من نهر العاصي ولذا أطلقوا عليها اسم حص فكان أبو بكر بن قرمان يركب مع أصحابه في النهر للترفة والصيد وتدور بينهم المحاضرات الشعرية والمحاورات الادبية وهم في الزورق . وقد استخرج صاحب جريدة الارز من مكتبة في رومه شيئاً من زجل الاندلسيين ونشره في مجلد . وأما الاصمعيات فهي الشعر البدوي وسميت اصمعيات نسبة للاصمعي راويه العرب (١٢٢ - ٢١٦ هـ) وهي قصيدة طويلة بلا اعراب بل هي بلغتهم الدارجة ويبدأ فيها غالباً باسم الشاعر وفيها كثير من البلاغة والفوائد التاريخية . والمعصب يميئون فيه على أربعة أجزاء يخالف آخرها الثلاثة في رويه ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة . والخوراني نسبة لجوران بأرض الشام . ولا نطيل الكلام ببيان هذه الفنون وأقسامها وفيها من البلاغة والفوائد التاريخية ما لا ينكر . بخلاف ما أحدثوه من

كثير وربما قيد في الفهرست المجموع المشتمل على عدة رسائل باسم الرسالة الاولى وفيها من نفائس الكتب ما لا يقدر

الصنائع اللفظية

وبين ذلك ان أدباء العرب في الجاهلية والاسلام صرفوا عنايتهم في النظم والنثر الى الالفاظ لا الى المعاني فالهدف الذي كان الاديب منهم يروم احصائه هو التفنن في طرق الافادة وبيان المعنى الواحد بأساليب مختلفة من الكلام . وشبهوا المعنى بالماء والالفاظ والتراكيب بالاناء . فمنه أنية الذهب والفضة والصدف والتزجاج والحرف . فغرض الشاعر منهم اسقاء سامعه الماء الواحد الذي لا يختلف ولا يتغير باجمل أناء يصوغه له حسب قدرته . ولم يكن غرضه أسقاء سامعه انواع المياه الخفيفة المهضمة من منابع مختلفة معدنية ولا أسقاءه انواع الخور أو المرطبات والبرورات بأي أناء كان ولذا أظهر الادباء كل مهارتهم في الالفاظ وبيّنوا اقتدارهم في معرفة اللغة وحفظ الاسماء الكثيرة والمترادفات وافادة المعنى الواحد بطرق مختلفة فكانت الالفاظ طوع قريحتهم يتصرفون بها كما يتصرف الصائغ في سبك الفضة . فالغوا في الالفاظ المهمل والمنقوط والمتشجر وما يقرأ طرداً وعكساً ولزموا في القوافي ما لا يلزم ونظموا الخالية وأمثالها - يروي عن أديب انه أجاب من شتمه بقواه الكلب من لا يعرف للكلب مائة اسم . وحفظوا اسماً كثيرة للمير والناقاة والسيف ولكل ما اشتهر بالخسة والشرف وقالوا كثرة الاسماء تدل على شرف المسمى أو خسته . ونجد امرئ القيس اذا وصف الفرس لم يدع عضواً من أعضائه الا شرحه تشریحاً . وأفوا كتباً كبيرة من الاحرف المهمة أو المعجمة مثل التفسير الذي الفه مفتي الشام السابق المرحوم محمود أفندي حمزه بالحرور المهمة ولما طبع هذا التفسير بدمشق بعثني والذي بنسخة منه الى المرحوم مفتي الخليل التميمي وكان علامة الديار المقدسية . فنظر في التفسير طويلاً ثم رده الي وقال لو لم يقيد قلبه بالاحرف المهمة لا فادنا بأكثر من هذا . وكتاب عنوان الشرف المشتمل على عدة علوم في متن واحد يقرأ بصور مختلفة وهو مطبوع في مصر . وعلى نسقه كتاب آخر مطبوع في الاستانة . ولما قال العماد الكاتب « سر فلا كيا بك الفرس » اجابه القاضي الفاضل « دام علاء العماد » . والمجلتان مما يقرأ طرداً وعكساً . وكان القاضي الفاضل رئيساً للراسلات السياسية عند السلطان صلاح الدين الايوبي والعماد الكاتب

بمعيته رئيساً لقلم المصالح الشامية وكتابه الفتح القدسي طبع في السنين الاخيرة . وقال
 أبو عبد الله بن بيس من علماء الاندلس وهو شيخ لسان الدين بن الخطيب المشهور :
 اساجعه بالواديين تبوأى ثماراً جنتها حاليات خواضب
 دعن ذكروض زانهسقي شربه صباح ضعى طي طباء عصائب
 غرام فوآدي قاذف كل ليلة متى مانأى وهما هواه يراقب
 فجمع في أول الكلمات حروف الهجاء من الالف الى الياء على الترتيب
 فأدباء الافرنج يقولون . نعم ان الشعر العربي فيه كثير من الصنائع البديعية وله
 رونق وبهجة وفيه تمييز للمسامع وهو على اسلوب التوراة وعلى نسق اللغات السامية
 ولكن الكلام الذي فيه تصنع في الالفاظ وتعمل في الشكل الخارجي لا يكون فيه
 حركة ذهنية ولا تخيل فكري . وما لم يكن فيه ذلك ليس فيه احساس ولا عظمة مطلقاً
 واذا ارتفع نفس الشاعر او الكاتب في الكلام الذي فيه تصنع وتعمل لم يبق على ارتفاعه
 بل ينقطع حالاً وينتقل الى غير ما هو فيه . بخلاف الشعرايوناني أو الافرنجي كرواية
 ايرناني مثلاً فان فيكتور هوكو نظمها على نفس واحد ونسق واحد وأبدع فيها بماقاله
 عن لسان شارلكن من الكلام العالي الموكي . فاذا نطق به الشخص على مسرح
 التشخيص أخذ بمجامع القلوب واستمر الشخص يهدر كما يهدر النهر حتى يصل كلامه لاعمق
 أفئدة السامعين ويؤثر فيها تأثيراً عظيماً . ومن قاس بنظره بين مقامات الحريري و بين
 رواية مضحكة من روايات مولير الشخصية فهم مغنى اعتراضهم وحقيقة انتقادهم على
 مقامات الحريري والهمداني وامثالهما . وينتقدون على المقامات ايضاً من جهة التهتك
 بالاخلاق والتغزل بالبنين كالتغزل بالبنات ووضع الحب في غير موضعه الطبيعي مما لم
 نعهده في كلام ادباء الافرنج المشهورين الا من ندر منهم مثل الاديب الانكليزي
 الذي حكم عليه منذ سنوات في لوندرا ودافع عن نفسه بمشروعية هذا الحب في اصل
 الخلق والطبيعة وبوجوده عند اليونان والرومان

والحق ان هؤلاء الافاضل لم يقصدوا بتأليف المقامة تصوير رواية مضحكة على
 اسلوب الكوميديه ولا رواية محزنة على نسق التراجيدية . وانما قصدوا اظهار المقدرة

على تصنيف الكلام وتدييجه بدياج الاستعارات والباسه حلل التشابه وترصيمه بلائيء البديع كقول الحريري في وصف الخطيب « يجذب الاسماع بجواهر لفظه ويجذب القلوب بزواج وعظه » من الكلام المدبج المصنع المرصع الذي لو نطق به على مرشح التشخيص لا يفهمه العوام ويحتاج الخواص الى النظر في صنائعه وأعمال الفكر في بدائعه . والا لو صرف الواحد من أولئك الافاضل عنايته لتصوير رواية على نسق روايات اليونان او الرومان او الافرنج لسقانا بكأس من الزجاج الشفاف أطيب الخمر وأعلاها طبقة . ولكنه أراد ان يغترف من ماء البحر بأناء صاغه لنا من الذهب الخالص وطلاه بالمينا الثمينة ورصعه فوق ذلك بعروق وأوراق من الجواهر والآلي ليخفي لنا الماء بابهي أناء ويرينا أحسن المصوغ والمجوهر . وقد يفرق فكر الكاتب العربي الملتزم للصنائع البديعية في لجج تلك الاستعارات والجناسات ويحتاج في استخراجها الى غواص ماهر له ملكة راسخة في اصطلاحاتهم . لان الكاتب منهم لم يكتب للعوام وأهل السوق وإنما يكتب للخواص من علماء الرجال وأدبائهم ولاصحاب الذوق منهم في الكلام وفي معانيه ولذا فهو يتجنب الكلمات السوقية المبتدلة وينتقي أعلى طبقات الكلام وأعوصها في اللغة . فالعربي على ماله من جلاله القدر في الادب لم يسقنا الحكمة من كأسه الا وهو يفوص في المباحث اللغوية ويأتي بالشواهد والامثال كما يتضح لمن طالع رسالة الغفران وهي التي شبهها مندوب مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر برسالة الجحيم التي ألفها الشاعر دانتي الطلياني . ومن طالع رسالة دانتي او ترجمتها رأها تسيل على نسق واحد كما يسيل الماء ليس فيها تصنع في الالفاظ والتركيب ولا فيها احتياج الى تفسير الالفاظ اللغوية والاستشهاد بالكلام المعترض

فالاندلسيون أصلحوا كثيراً من الخلل الموجود في أدب العرب وجاؤا بالمطولات في فنون كثيرة من الشعر والنثر وأوجدوا فنونا مستحدثة واتبعوا في الكلام شعورهم وأحاسيسهم القلبية فطافوا على قرائهم بصحاف من ذهب و كواب فيها بعض ما تشتهي الانفس . ونرى في توصيفهم المناظر الطبيعية وتصويرهم وجوه الارض مشابهة

بأشعار الافرنج كوصف حمدونه وهي من بنات الاندلس الشواعر لوادي آش وهو
في أيلة غرناطة قالت

وقانا لفحة الرضاء واد سقاها مضاعف الفيث العميم^(١)
حللنا^(٢) دوحه فحنا علينا حنو الرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظاء زلالاً الذ من المدامة للنديم
تروع حصاه جالية المذارى فيلمس جانب العقد النظيم

وقال أبو الفدا لابل الايات لاحد بن يوسف المنازلي المتوفي سنة ٤٣٧ هـ
وزير ابي نصر احمد ابن مروان الكردي صاحب ديار بكر وترسل الى القسطنطينية
ومر في بعض أسفاره بوادي بزاعا فأعجبه حسنه فقال فيه الايات . ووادي بزاعا في
ولاية حاب واليه ينسب أبو فراس الحمداني وغيره من الشعراء

ولو طال على الاندلسين الأمد في الحضارة وتماقبت الادوار على اللغة وتوالت
عليها الانقلابات لا توا بأحسن مما جاء به فيكتور هوكو وأميل زولا من محصول العقل
ومعجني الفكر البشري . ولكن عاجلهم الانقراض وفاجأهم الاستبداد فأحلت عقولهم
وسدت قرائحهم . وقد اجتمعت في باريس بوفد السلطنة المراكشية وهو ذاهب
لحضور الاحتفال بيوبيل فيكتوريا ملكة الانكاز فوجدت رئيس الوفد الذي هو
السفير الكبير أمياً

ثم ان العارفين باللغات نصوا على ان لأدب اللسان العبراني تأثيراً على أدب
العرب قبل الاسلام وبعده وذكروا مشابهة وتوارداً في الخواطر بين ما جاء في شعر
امرى القيس الذي يضرب فيه المثل اذا ركب وبين ما ورد في سفر أيوب من
التوراة في وصف الفرس . ونقل بعد الاسلام من العبرانية الى العربية ما سمي
بالاسرائيليات مثل التواريخ وقصص الانبياء ومناقب الصالحين مما هو في التوراة
والتلمود وكان نقلها عن احبار اليهود الذين أسلموا مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه
وأمثالهما رضي الله عنهم . وقد رأينا فيما سبق كيف ترجم عن اللغة الفارسية والهندية

(١) نسخة : وقاه مضاعف الثبت العميم . (٢) نزلنا

كتاب كليلة ودمنة وما شابهه وكيف نسج الادياء على منواله واعتنوا بنظمه مما كان له مفعول قوي في الحركة الذهنية والتصورات الادبية والاختلافات الفكرية . ومع ذلك فجميع ما ذكر لم يكن له كبير تأثير على الشعر العربي ولم يغير شيئاً من أساليبه القديمة ودامت أساليب شعراء الجاهلية هي الهدف الذي يصبوب نحوه كل شاعر بالمرية في قديم الزمان وحديثه

فيتضح مما تقدم ان العرب لم يأخذوا من الامم الذين ترجموا كتبهم الا العلم والحكمة فقط ولم يحفلوا بشعر اليونان ولا برواياتهم الشخصية ولا بشعر اللاتين وخطبهم ولا ترجموا شيئاً من ذلك . مع انهم رأوا في كتاب المنطق لارسطو ثناء طيباً على أوميروس الشاعر اليوناني ولكنهم لم يقلدوه ولا اتبعوه ولا نهجوا منهجه في شيء ولم يكن للكتب المترجمة تأثير على طبقة المثني والمصري وابن هاني الا من جهة افادتهم الآراء الفلسفية لا من جهة افادتهم أساليب النظم وطرق الكلام ومن فحول هذه الطبقة أبو العتاهية وكان في أيام المهدي وهارون الرشيد والمأمون واكثر في أشعاره من ذم الدنيا لغدرها بابنائها ومن تذكير الغافلين بالموت ولم يشوق للأخرة ونعيمها ومن لطيف شعره

الا انا كنا بائد وأي بني آدم خالد
وبدوهم كان من ربهم وكل الى ربه عائد
فيا عجباً كيف يعصى الا ه ام كيف يججده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد

ومن فلاسفة الشعراء أيضاً ابن الشبل ابو علي حسين بن عبد الله البغدادي المتوفى سنة ٤٧٤ هـ وكان له وقوف على كثير من علوم الحكمة والفلسفة وله ديوان وقصيدة فلسفية يقول فيها

بربك أيها الفلك المدار اقصد ذا المسير ام اضطرار
مدارك قل لنا في أي شيء ففي افهامنا منك انبهار
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تدار

وعندك ترفع الارواح أم هل مع الاجساد يدركها البوار

الح :

ولا بن سينا والرازي أشعار فلسفية وقصيدة ابن سينا في النفس مشهورة ومنها

هبطت اليك من المحل الارفع ورفاء ذات تعزز وتمنع

محبوبة عن كل مقلة عارف وهي التي سفرت ولم تنبرقع

وصلت على كره اليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع

الخ . . .

وله أشعار بالفارسية أيضاً يرد بها على من اتهمه بالكفر والاحاد، ومن كلام أبي

بكر الزازي محمد بن زكريا قوله

لعمري ما أدري وقد آذن إلي بعاجل ترحال الى اين ترحالي

واين محل الروح بعد خروجها من الهيكل المتحل والجسد البالي

الى غير ذلك مما أتى على هذا النسق من كلام أهل هذه الطبقة

فان لم يكن لفنون الادب الاعجمية كبير تأثير على شعر العرب ونثرهم فهل لفنون

الادب العربي تأثير على شعر الافرنج ؟

بيننا البحث عن جواب هذا السؤال واذ رأيت في جريدة طرابلس الشام عدد

٤٦٢ مقالة في الزجل والتوشيح وكتاب العذاري المائسات الذي استخرجه صاحب

جريدة الارز من سفر قديم العهد مخطوط بالحرف المغربي المشيج عثر عليه في خزانة

كتب بدير القديس انطونيوس للرهبانية الحلبية في رومة وقال فيه :

فتصفحته فاذا فيه طائفة كثيرة من الشعر الفائق مقطعات ومغناطات خرج بها

ناظموها عن أوزان الشعر العربي المعينة واجزاء بحوره المفروضة وأحكام أعاريضا

وضروها المطردة بيد انهم اجادوا في ذلك منتهي الاجادة فاننقت مما عثرت عليه

كل نفيس خدمة لاهل الادب واثباتا لسبق العرب اليها وبعد ان ذكر

صاحب المقالة تعريف الموشح والزجل وعروض البلاد والمزدوج والكارى والملمبة

والغزل وغير ذلك قال :

وقد استحسن شعراء الافرنج من الاسبان والالمان والاطليان والفرنساويين هذه الضروب من فنون الشعر العربي ونسجوا على منوالها كما يرى ذلك في دواوين شعرائهم . ولا مرأه بأن ذلك انقل اليهم من العرب حيث لم يأنسوا بأنوار هذه المستحدثات الا في أواخر القرن الثالث عشر . والمتصفح لكتب العرب والافرنج يرى شذرات من هاتيك العذارى . ولكن قل ان يراها مجتمعة في صفحات غديدة أو كتاب واحد مع انها في درجة عليا من الحسن والجودة وتطريب السامع (انتهى)
فايضاحاً لمجمل هذا القول رأينا ان نبهت في منشأ الادب الافرنجي وفي دخول العرب بلاد الافرنج



كانت فرانساً في قديم الزمان تسمى أرض الغول وكان يسكنها قبائل الغولوا والسلت (القلت) من البربر المتوحشين . فلما استبحر عمران الرومانيين في رومة وقويت شوكتهم ساقوا العسكر من ايطاليا على سواحل فرنسا الجنوبية واستولوا على اسبانيا لزيادة الهواء والارض فيها وشكلوا في اطراف مرسيليا ومصب نهر الرون ولاية سموها بروفانس ومعناها الايالة وجعلوا عاصمتها مدينة اكس وهي في شمالي مرسيليا . وبنوا على الحدود الاسبانية مدينة نربون بالقرب من مستنقع على شاطئ البحر واتخذوها محطاً لرحالهم في سفرهم الى اسبانيا والى الحمامات المعدنية التي في جبال البيرينة . وقبل الميلاد بخمسين سنة تعين يوليوس قيصر والياً على بروفانس فوسع حدود الولاية وفتح ارض الغول والحقها باملاك الدولة الرومانية فصارت الولاية ترسل اليها من رومة ومعهم العسكر والمأمورون فنظموا ادارتها وفتحوا طرقها وعمروا فيها القلاع والحصون والمدن ونشروا فيها شيئاً من حضارتهم ومن لغة عوامهم وهي اللغة اللاتينية الدارجة وادخل المبشرون بالمسيحية الدين فيها فصارت اللاتينية لغة الدين والدولة واستمرت بلاد الغول في أيدي الرومانيين نحو اربعمائة سنة . وحينما انقسمت دولة

﴿ استدرالك ﴾ : ورد صفحة ٦٠ سطر ٦ « المتنبى » صوابها « أبي تمام »

الرومان الى شرقية مقرها القسطنطينية والى غربية مقرها رومه وذلك في سنة ٣٩٥ م كانت فرنسا في قسمة الغربية ضرورة غير ان تسبب الولاة وضعف قوتهم العسكرية اباح لقبائل الجرمان التجاوز على أرض الغول والاسثيطان فيها كما استوطن من قبلهم قبائل القوط والفاندال ارض اسبانيا وسموا الاندلس باسمهم فقالوا فاندالوسيا او أندالوسيا . ففي اوائل القرن الخامس للميلاد نزلت قبائل الويزي قوط في جنوب نهر لوار المارفي وسط فرنسا والمنصب في المحيط بالقرب من مدينة نانت . ونزلت قبائل البورغوند في وادي الرون وجبال جورا ونزلت قبائل الفرنك في شمالي أرض الغول اي في بلاد البلجيك . ونزلت الالمان على ضفاف الرين العليا واستمرت حكومة الرومانيين محصورة وسط بلاد الغول على ضفاف نهر السين . غير ان القبائل النازلة سالموا الحاكم الروماني وقاتلوا تحت قيادته قبائل الهون الاسيوية وكانت قد هجمت على غربي اوروبا وخربت البلاد وأراقت الدماء فهزموا رئيسهم اتيلا سنة ٤٥٠ م امام مدينة شالون التي على نهر مارن . فلمت قبائل الهون شعثها وجمعت جموعها وفاضت على الممالك الرومانية في ايطاليا كالسيل الجارف واستولوا على رومة سنة ٤٧٦ م وابدوا ملكها . فتفردت قياصرة الروم في القسطنطينية بالحكم على الرومانيين واستقلت القبائل النازلة في ارض الغول وكان أشجعهم واقدرهم قبائل الفرنك فاستبدوا بالامر وطرد رئيسهم قلوڤيس الوالي الروماني وقام مقامه في حكومة الغول وتزوج بمسيحية من البورغوند فنصرته هو وقومه ونصره الرهبان على قبائل البورغوند والويزي قوط فحكم عليهم واسبس سنة ٤٨١ م الدولة التي سميت باسم جده « ميروفقة » فقيل لها (ميروفينجيان) أي آل ميروفقة وهي اول دولة من الافرنج ودام حكمها ثلاثة قرون . وحيث كان ملوك الافرنج يقسمون الملك بين اولادهم انقسمت دولة الميروفينجيان الى أقسام متفرقة فضعفت قوتها وتضعفت وأصبحت ايام دخول العرب اليها منقسمة الى أربع ممالك يملكها ملوك من آل ميروفقة (١) اوستراسيا أي المملكة الشرقية وهي عبارة عن الازاس واللورين وما جاورها من ضفاف نهر الرين . ولم يكن للملكها من آل ميروفقة نفوذ فيها بل كانت

الكامة فيها لاعيانها وكبيرهم دوق اوستراسيا ومقرهم مدينة ميج
 (٢) نوستريا أي المملكة الغربية وهي على ضفاف السين الى أورليان جنوباً
 وعاصمتها باريس وكذا أورليان والمالك عليها من سلالة ميروفنجيان اصحاب الملك
 الشرعي على عموم فرنسا

(٣) بورغونيا وهي على ضفاف الرون والسون وعاصمتها ديجون

(٤) اكينانيا وهي ما بين جبال البيرينه ونهر غارون المنصب في المحيط بعد
 مروره بطولوز وبوردو . وكانت اذ ذاك تحت حكم الدوق أود الملقب بدوق اكينانيا
 وهو من نسل ميروفة ومقره طولوز . وتسمى الايالة المحيطة بها لانغيدوق وما في
 جنوبها سبتيمايا كما يسمى القسم الذي على ساحل الاوقيانوس المحيط غسكونيا وأطلق
 عليه في كتب العرب ارض غسكونية

ففي سنة ٦٨٧ م تداخل دوق اوستراسيا المسمى بين دريسنال في شوون مملكة
 نوستريا اغتلة ملوكها من آل ميروفة واهملهم مصالح الملك حتى اطلق عليهم اسم الملوک
 البطالين لعمودهم وتخنتهم . وجعل بين نفسه مشيراً الملك في باريس وأميراً للأمراء
 في المملكة على مثال ما حدث في عهد الخلفاء العباسيين ثم انضمت اليهم بورغونيا
 فصار لدوق اوستراسيا نفوذ في أكثر المملكة وهياً الامر لابنه شارل مارتل صاحب
 الوقائع مع العرب والحفيدة من بعده . فخذ على بين الامراء من آل ميروفة لاسيما
 أود دوق اكينانيا لتفوقهم عليه في الاضالة وشرف النسب

وقبل دخول الرومانيين ارض الغول كان لسكانها من قبائل الغولوا والسلت
 النازلين ارض بريطانيا السن مخصوصة همجية فلما انتشر بينهم عسكر الرومانيين ومأمورهم
 ومن تبعهم من التجار والسوقة صاروا يتكلمون لغة عوام اللاتين وسوقتهم أي اللاتينية
 الدارجة ويلوكون بها سنتهم كما يلوک الزنجي لسانه بالعربية او السنغالي بالفرنساوية
 فلما اسنوت قبائل الفرنك على ارض الغول وطردها منها والي الرومان اقتبسوا لسان
 اهلها وما لديهم من الحضارة الرومانية وضموا الى هذه اللاتينية المحرفة كلماتهم الفرانكية
 البربرية فظهر من هذا الاختلاط لغة سميت (رومان) وهي لاتينية سوقية تحرفت

بلسان الغولوا والسلت ثم امتزجت بلسان الفرانك . وحيث كان اللسان والدولة تابعين لقانون واحد في الترقى والانحطاط والانقسام انقسمت لغة رومان بانقسام الدولة الى قسمين احدهما كان يتكلم به أهل الجنوب ويسمى (أوق) ومنه لسان بروفانسال المنسوب لايالة بروفانس وهو أقرب للسان الظليان والاسبانيول منه الى اللسان الفرنساوي الجديد . والثاني كان يتكلم به أهل الشمال ويسمى (اويل) . ثم انقسمت لغة اهل الشمال الى لهجات متعددة غلبت على الجميع لهجة جزيرة فرانسواهي الايالة التي عاصمتها باريس وتعممت في الولايات الشمالية حتى صارت اللغة الفرنساوية الحالية ثم انتشرت في الايالات الجنوبية حينما استولى عليها سنة ٩٨٧ م هوغ قابت مؤسس الدولة الثالثة من دول الافرنج في فرنسا . ولم تزل الحكومة الفرنساوية تسمى في نشرها وتعميمها واصلاحها الى يومنا هذا . ومع ما تصرفه من العناية في تعميمها لم يزل في اهل القرى من لا يعرف منها الكلمة الواحدة . ونزلت ذات يوم قرية من قرى فرنساويين في جبال البيرينه فلم استطع التفاهم مع اهلها حتى جاءني رجل من القرية المجاورة وله تردد على الامصار الفرنساوية ومدنها العامرة فالفرنساويون اخذوا لسانهم من قوم ايس لهم به قرابة جنسية وسموا انفسهم باسم قبيلة اجنبية من قبائل الجرمان الذين خرجوا من المانيا وتغلبوا على فرنسا واسسوا فيها حكومتهم وسموها باسمهم وتناسوا اسمها القديم وهو ارض الغول واسم سكانها الغولوا

ولما دخل العرب فرنسا كان اهلها يتكلمون لغات كثيرة ههجيية غير مدونة اذ كانت القراءة والكتابة باللسان اللاتيني الفصيح في فرنسا وفي عموم اوربا الغربية بما فيه انكلترة . فمن تلك اللغات التي لم تدون حينئذ لغة الباسك وكان يتكلم بها قبائل الواسكون سكان البلاد في قديم الزمان ومنهم سميت اقليمانيا بارض غسكونية . ولم يزل من المتكلمين بلسان الباسك نحو ١٢٠.٠٠٠ في فرنسا ونصف مليون في اسبانيا . ومنها لغة بروفانسال ولم يزل لها عدة لهجات (باتوا) يتكلم بها اهل القرى في الولايات الجنوبية وفي ضواحي مرسيليا . ومنها لغة بريتون

وهي بقية لغة القلت او السلت ولم يزل من المتكلمين بها نحو مليون ونصف في شبه جزيرة بريطانيا غربي فرنسا . ومنها لغة فلاماند وهي نوع من الالمانية ولم يزل يتكلم بها نحو ١٦٥,٠٠٠ من سكان الحدود الشمالية . وغير ما ذكر من اللغات التي انقرضت بدون ان يبقى لها اثر في اللغة الفرنسية كالغة اكينانيا او بقي لها اثر فيما يسمونه باتوا من لغات أهل القرى اذ لكل ناحية باتوا مخصوصة بها لا يفهمها أهل الناحية الاخرى بخلاف اللغة العربية الدارجة فان المرسيني والاسكندروني والبيروتي واليافي والاسكندري والطرابلسي والتونسي والجزائري والطنجني يفهم بعضهم بعضاً بأدنى تأمل وأقل فكرهما تحرفت كلماتهم وكذا أهل المدن في داخل تلك السواحل فلا يتعذر عليهم فهم لهجات بعضهم بعضاً مع انه لم يحصل عناية ولا مهمة في نشر اللغة العربية وتعليمها بل الهمم مصروفة في تلك البلاد العربية لنشر غير العربية من اللغات الاعجمية كالفرنساوية والانكليزية والاطليانية والتركية . فبينما كانت فرانساً متفرقة الكلمة لغة وسياسة اذ دهما العرب واستولوا على اكثرها

١٥

لما جلس الوليد بن عبد الملك بن مروان (ولد ٤٨ - ٩٦ هـ) سادس الخلفاء الامويين والثالث من آل مروان كانت ولاية أفريقية ملحقة بولاية مصر والعامل عليهما عبد العزيز بن مروان فلما أتاه الحسن بن النعمان بالغنائم التي غنمها من البربر طمع فيه فشكاه الحسن بن النعمان الى الوليد ففسخ عن مصر أفريقية وولاهها موسى ابن نصير . وكانت مملكة القوط في اخنلال من استبداد رودريك بالامر وتغلبه على طليطلة عاصمة الملك وظلمه في قبائل الغوط وتسارطه على اعراض بناتهم فاستجار الاسبانيول بالعدالة الاسلامية واغنم موسى الفرصة وكتب للخليفة يستأذنه في فتح بلاد أطيب هواء من الشام وأخصب أرضاً من اليمن وأعطر زهراً من الهند . وبعد استحصاله على اذن الخليفة سير طارق بن زياد بجيش من البربر فاجتاز بحر الزقاق على المراكب من أضيق محل فيه ونزل بساحل أوربا عند صخرة هائلة كأنها الجبل فسميت باسمه وقيل لها جبل الطارق وقيل لمجمع البحريين المكتشفين بها بوغاز

جبل الطارق (جبر التار) وكان ذلك سنة ٩٢ للهجرة وسنة ٧١٠ م . وألف عبد الحق حامد مستشار سفارة لوندرة رواية تشخيصية باللسان العثماني سماها طارق وأبدع في نظامها ونثرها وبين فيها هذا الفتح المبين . فالتصر طارق في محاربة وادي لينة بالقرب من جزيرة قادس . ولحقه موسى بن نصير بجيوش من العرب وأشرف قریش وفتحوا مائه واشبيلية وهي على شاطئ الوادي الكبير وقرطبة وطليطلة عاصمة ملوك القوط وهي على نهر باجه المسمى بنهر تاج . وظلوا سائرين حتى باغوا أسفل جبال البيرينه الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا وفتحوا استورغنة وهي في أسفل تلك الجبال . وهذه أول مرة رأى فيها القرشيون جبال البيرينه وهم تحت قيادة موسى ابن نصير وسموها (جبل البرنات) بكسر الراء - هذا من جهة الغرب

وأما من جهة الشرق فسير الحجاج والي العراق جيشاً عقد لواءه لابن عمه محمد بن القاسم الثقفي تجاوز به نهر السند وفتح الهند وسير جيشاً آخر تحت قيادة قتيبة بن مسلم تجاوز به نهر جيحون من خراسان وفتح ما وراء النهر وتقدم حتى بلغ كاشغروأخذ الجزية من ملك الصين . وأصبح ما بين المشرق والمغرب تابعاً للوليد وهو منعم في قصره لم يخرج في غزوة . واستوثقت له الامور ولم تغفل عساكره المنصورة الا في بلاد الترك وهي في قيادة الحجاج وفي بلاد الروم وهي في قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك . وبلاد الترك هي تركستان وما بين بحر الخزر وبحر خوارزم (بحيرة ارال) وما في شمالها من أراضي سبيريا وكانت في حكم خاقان الترك كما هي اليوم في حكم قيصر الروس . وبلاد الروم هي بر الاناطول والروم ايلي وكانت تابعة لقيصر الروم أي لدولة الرومان الشرقية كما هي اليوم من أجزاء الممالك العثمانية . ومن حسن حظ الوليد توفته لبناء المسجد الاقصى ومسجد المدينة وجامع دمشق وفي كل بنيان منها دليل شاهد على حضارة ذلك الزمان وترقي أهله في الصنائع وال عمران

ثم جلس على كرسي الخلافة أخوه سليمان (٥٤ - ٥٩ هـ) بن عبد الملك بن مروان وجازى قتيبة بن مسلم فاتح الشرق بما جازى به أخوه الوليد فاتح الغرب وهو موسى بن نصير . وهكذا كانت الخلفاء تجازي فاتحي الممالك الاسلامية بأشنع

مما جوزى به سنار . فأتوا منكوبين قهراً الا يملكون شيئاً مما جنته أيديهم من أموال
 الغنائم . وزادت نكبة موسى بن نصير بقتل ولده عبد العزيز مكافأة على حسن
 ادارته في ولاية اشبيلية . وكان موسى متأهباً للاغارة على الامم التي بين جبال
 البيرينه وخليج القسطنطينية وادخالها جميعاً في الاسلام كما دخلت أم آسيا وأفريقية
 ولم يكن هذا الامر على موسى بهزيم لوجود الاختلاف والتفرقة بين أمراء الافرنج
 وعدم التجارة في ملوكهم الملقبين بالبطالين . ولكن سوء تدبير الامويين صده عن
 هذا العمل العظيم ومكن الافرنج في فرانس مما لم يتمكن منه القوط في اسبانيا من
 الائتلاف والاتحاد وصد هجمات العرب . وبسوء تدبير الخلفاء أيضاً وعدم غرسهم
 المعروف في أهله وعدم مكافاتهم المخترعين والمكتشفين كما كانوا يكافئون الشعراء
 والمننيين التحق بالملك مخرج النار اليونانية بقيصر الروم وأسر إليه كيفية عمل هذه النار
 فأمر باصطناعها في معامل القسطنطينية براً وبحراً . لان مسامة بن عبد الملك أخا الخليفة
 اخترق بمسكر الاسلام بر الاناضول وعبر من مضيق الدردنيل المسمى (بوغاز چنا
 قلعه) وطلع لاوربا واتبع ساحل بحر مرمره حتى وصل أسوار القسطنطينية ووضع
 الحصار عليها كما حاصرها من قبل سفيان بن عوف الازدي في خلافة معاوية
 سنة ٤٨ هـ واستشهد اذ ذلك ٣٠ ألفاً من أهل الاسلام وفيهم خالد أبوأيوب
 الانصاري ولم يزل ضريحه يزار في الحي المنسوب اليه على ساحل الخليج المسمى
 بقرن الذهب . وبينما كانت عساكر مسامة تحاصر من جهة البر كان اسطول الاسلام
 المجهز في سواحل سورية ومصر من خشب احراج لبنان راسياً في مياه القسطنطينية .
 فالذي منع العرب من فتح القسطنطينية هي النار اليونانية لانها أضرت بمسكر
 المسلمين وأحرقت مراكبهم وكانت عدتها الف وثمانمائة مركب والكبار منها عشرون
 مركباً امام عاصمة الروم كأنها الغاب من الصواري والكمأة فيها كالاسود . فاحترقت
 بأجمعها ولم يعد منها للاسكندرية سوى خمسة مركب — فالمخترع لهذه النار السائلة
 على ما ذكره المؤرخ الانكليزي جيبون هو رجل من بعلبك يسمى كالينيقوس كان
 يصطنعها من النفط والكبريت وفحم الصنوبر بطريقة مخصوصة ومقدار معين

فكانت تشتعل في الماء والهواء وتدمر ما تنصب عليه ولذا سميت أيضاً النار البحرية . وما زال المسكر في الحرب يعولون عليها ويثقون ضررها الى أن اكتشف العرب على ما يظن بارود المدافع باضافتهم الى مسحوق الفحم والكبريت ملح البارود . ونقله عنهم في القرن الثالث عشر الميلاد روجر باكون الانكليزي (١٢١٤ - ١٢٩٤ م) وغيره من كياويي الافرنج واشتهر استعمال البارود في المدافع سنة ١٣٤٦ في المحاربة التي وقعت بين فرانسوا وانكلتره في قريسي وهي في شمال باريس على نهر صوم . فكان ملك الانكليز ادوارد الثالث يقود العساكر هو وابنه البرنس دوغال وكانوا مسلحين بالقوس والنشاب ومعهم بعض المدافع التي ظهر استعمالها في ذلك الوقت فعاب الانكليز مع قلة عددهم بسبب الانتظام والترتيب العسكري . فهذه أول محاربة في اوربا استعملت فيها المدافع ولكن المظنون ان العرب استعملوها قبل هذا التاريخ اي في اواخر القرن الثالث عشر للميلاد في محاصرتهم جزيرة صقلية سنة ٦٧٢ هـ - وعلى كل فلاندري كيف ترك هذا الكياويي البعلبكي خدمة الخلفاء الامويين والتحق بقيصر الروم وفي الدواة الاموية في ذلك العصر من يحرص على الكيمياء وعلى تفرعات مسائلها مثل خالد وجعفر وجابر ومن أخذ عنهم

توفي سليمان بن عبد الملك مرابطاً في مرج دابق من ارض قنسرين واخوه مسلمه منازل القسطنطينية . ثم جلس عمر (٦١ - ١٠١ هـ) بن عبد العزيز بن مروان وأبى ابن عمه مسلمة على حصار القسطنطينية وتجاوزت عساكر الاندلس الى وراء جبال البيربنة من ارض فرنسا ليحتمقوا أمال موسى بن نصير في الذهاب برماً الى القسطنطينية . وكانت مدينة نربون تفوق مرسيليا في العمران وتصل في في البحر الشامي بترعة طولها ثمانى كيلومترات فتدخلها المراكب كما تدخل اليوم حاضرة تونس الخضراء . فحاصرها عاقمة بجيوش المسلمين من البر والبحر وامتد الحصار سنتين لتحصنها بالمستنقعات وبالقلاع الرومانية

ثم جلس يزيد (٧٦ - ١٠٥) بن عبد الملك بن مروان تاسع الامويين

وسادس الروانيين وفي ايامه دخل علقمة بالسيف الى نربونه فرمها وزاد في تحصينها واتخذها مركزاً لحركاته العسكرية في فرانسوا وصار العرب يسمونها أربونة وافتتحوا ما حولها من التمرى والتقصبات التي في أرض سبتانية وظلوا سائرين حتى دخلوا ايلالة لانغيدوق والقوا الحصار على مدينة طولوز (طلوشه) وكانت اذ ذلك مقر دوق اكينانيا المسمى اود . فخرج لهم الدوق بجيوشه من الويزى قوط والواسكون والفرانك واقتتلا قتالاً شديداً قتل فيه كثير من الجانبين وكان علقمة يستشيط غيرة وحمية ويكر بنفسه ويشجع الابطال بكلامه فأصابه سهم قضى به نجبه واقترب الجمعان وكان ذلك في شهر مايس سنة ٧٢١ م وسنة ١٠٣ هـ . فاستلم قيادة الجيش عبد الرحمن وكان من ذوي الحمية والاقنذار ومن أصحاب عبد الله بن عمر وانقلب راجعاً الى ضواحي نربون والى مصب نهر الرن

وفي سنة ١٠٥ هـ او سنة ٧٢٤ م توفي يزيد بن عبد الملك حزناً على حباية فجلس على كرسي الخلافة أخوه هشام (٧٠ - ١٢٥ هـ) بن عبد الملك بن مروان وعين والياً على الاندلس عنده فأراد الاخذ بثأر سلمة علقمة وتجاوز بالعساكر جبال البيرينة ونزل ايلالة سبتانية وهي اليوم ولاية البيرينة الشرقية وولاية اود وما جاورها وافتتح مدينة قرقسون وسموها (قرقشونه) وهي في غرب نربون وعلى سكة الحديد الواصلة بين مرسيلا وطولوز وبوردو . وتقدم عنبة بالعسكر فجاءه أهل مدينة نيم وهي في الشمال الغربي من مرسيلا وطلبوا منه الامان فأمنهم ودخل مدينتهم بالصلح وسموها نيمة وأخذ أبناء أعيانها رهناً على طاعة أبائهم وحفظهم في برشلون (برشلونه) وهي على ساحل البحر الشامي في ايلالة قطالونيا المشرفة عليها جبال البرينه . وتقدمت جيوش عنبة على ضفاف الرن حتى دخلت مملكة برغونية وغزت مدينة أتون سنة ١٠٧ هـ وسنة ٧٢٥ م . وفي هذه السنة قتل عنبة في احدي المعارك وبلغ ما غنمه المسلمون في زمن ولايته ضعف ما غنموه في السنين السابقة من بلاد فرانسوا . واستلم قيادة الجيش بعده حديثه ورجع بالعسكر الى الحدود الاسبانية فلاقى بها المدد الذي بعث به المرابطون في الاندلس فكر بهم على بلاد الافرنج والقي الرعب في قلوب

أهلها . وأوغل في الارض الشمالية وفي مملكة برغونية . ويزعم مؤرخو الافرنج ان العرب اكثروا في هذه الحروب من اراقة الدماء وهدم البناء واحراق الكنائس والاديرة وتخريبها واتلاف الاموال وغصبها . ومنهم من يعترف بان العرب اخف وطأة على بلادهم من قبائل الهون الاسيوية الذين اتوهم من الشمال الشرقي تحت قيادة أتيليا ودمروا بلادهم تدميراً . ولم يزل الفرنسيون ينسبون الى العرب تخریب كل خرابة يشاهد أثرها في الاراضي الجنوبية من فرنسا . ويظهر من تواريخ الافرنج ان العرب بعد فتحهم هذه البلاد قسموها الى ايلات وجعلوا الارض التي على جانبي البيرينة في فرنسا واسبانيا من جهة البحر الشامي المتوسط ولاية اسمها سيردانية وهي اليوم عبارة عن قطلونيا في اسبانيا وعن ولاية البيرينة الشرقية في فرنسا وكان الوالي عليها قائداً من البربر مثل طارق بن زياد يسمية الافرنج مونيزا فاتفق الدوق أود مع هذا القائد المسلم وزوجه بنته وعاهده على عدم الغزو في بلاده فأصبح في جبال البيرينة حاجزاً امام غزاة المسلمين فأغناظوا من هذا الاتفاق وأظهروا مياهم لعبد الرحمن الذي كان استلم قيادة الجيش بعد قتل علقمة . وكان عبد الرحمن من أصحاب عبد الله بن عمر متخلفاً باخلاق الخلفاء الراشدين وأكابر الصحابة والتابعين حريصاً على اعلاء كلمة الله وعلى نشر الدين في جميع أقطار الارض فكان يجتهد في تحقيق أمال موسى بن نصير والاستيلاء على اوروبا والوصول منها الى القسطنطينية . فعينه الخليفة هشام والياً على الاندلس سنة ١١٢ هـ او سنة ٧٢٠ م فدخل بالعسكر مدينة بويسردا وهي عاصمة ولاية سيردانية وقتل القائد المتفق مع أود وبعث بزوجه وهي بنت الدوق الى دمشق وقيل بل اتحر هذا القائد المسمى مونيزا خزيًا وحياء . وكانت مدينتا نيم ومون يليه تابعتين للمسلمين فنقدم عبد الرحمن بالعسكر الى ضفاف الرون وعبر الى شاطئه الايسر والقي الحصار على مدينة آرل فانجدها الفرنسيون بمفرزة من العسكر وحمت نار الحرب وكثر فيها عدد القتلى حتى امتلأ النهر بأجسادهم ثم سار على ضفاف نهر الرون صاعداً في الشمال والقي الحصر على مدينة أفينون وافتتحها وهذه المدينة هي التي صارت في

القرن الرابع عشر للميلاد مركزاً للبابوية بدلاً عن رومة واستمرت تابعة للباباوات الى ما بعد الانقلاب الكبير أي لسنة ١٧٩١ م .

وكانت فرنسا اذ ذلك في حكم الملوك الذين هم أواخر سلالة مير وفينجيان ويلقبون لباطنتهم وعظمتهم (فينيان) أي الذين لا يعملون شيئاً بل كانوا يملكون بلا حكم ولا قدرة ويموتون بلا عز ولا نصرة كما وصفهم المؤرخون وكانوا يقيمون في قصر بجوار مدينة قومبينيه وهي في شمال باريس وفيها حصان ملاقات قيصر الروس في زيارته الاخيرة لفرنسا . فكانوا كأنهم في حبس لا يأتون عاصمة الملك الا مرتين في السنة مرة في شهر مارس وأخرى في مايس لحضور المجلس المؤلف من أعيان الافرنج او لملاقات السفراء فاذا انعقد المجلس أركب الملك في كارة يجرها ستة رؤس من فحول البقر لا من عدم وجود الخيل والبغال وانما للراحة وعدم الانزعاج بكثرة الحركة والجري وأتى به الى المجلس ليصدق على القرارات التي يتخذها ناظر السراي او أمير الامراء وهو في ذلك التاريخ دوق اوستراسيا المسمى شارل مارتيل وكانت بقية الامراء أشبه بالستقلين في اماراتهم يبغضون بعضهم بعضاً وكلمتهم متفرقة . ولو دخل عليهم موسى ابن نصير سنة ٩٢ هـ حينما افتتح اسبانيا لامتلك أوروبا باجمعها ولأدخل جميع القبائل الجرمانية الوثنيين في الدين الاسلامي . غير ان الافرنج لما سمعوا بظهور العرب ومحاصرتهم القسطنطينية وكانوا يترقبون ورودهم من شرق أوروبا فلما رأوهم نازلين عليهم من جبال البيرينه أخذهم الرعب فانضموا بأجمعهم الى أمير الامراء شارل مارتيل وكان أشدهم بأساً وادهاهم سياسةً وأحسنهم رأياً وعملاً . فلم يدر عبدالرحمن بان الوقت فات على فتح بلاد الافرنج وأخذ يتأهب لقتالهم وحشد العساكر من الشام ومصر وأفر بقرية والمغرب وسار بهم من جهة المحيط لا من جهة البحر الشامي المتوسط على سابق العادة في دخول غزاة المسلمين لفرنسا ومر بهم من رونسيغو وهو مرضيق في جبال البيرينه تمر منه جيوش الفاتحين في قديم الزمان وحديثه . فمنه مرهنيبال الفائد القرطجني ومنه مرت جيوش شارلمان حينما قاتل العرب . ومنه مرت جيوش نابوليون حينما فتح اسبانيا ومنه مره فيكتور هوغو في ذهابه لاسبانيا وابابه منها . فمر

رونسيفو واقع بين مدينتي بامبلونه في اسبانيا وبايون في فرنسا وهي التي سماها العرب « بيونه » ويقطع المسافر منها بالقطار ستين كيلو متراً الى منتهى الحدود الفرنسية ثم يسير على الخيل والعجل ١٥ كيلو متراً اخرى فيصل حاق الوادي المسمى رونسيفو . فسار عبد الرحمن في هذا الطريق وخرج لارض غسكونيا التي سماها غسكونية وهي سهول واسعة كثيرة المياه والاحراج والقسم الساحلي منها أشبه بتهامة من جزيرة العرب ولذا سماها بعض الجغرافيين تهامة الافرنج . غير ان الوديان التي تسيل في تهامة العرب تبتاعها الرمال المحرقة واما المياه التي تسيل في رمال تهامة الافرنج التي تدعى لاند فتروى أرضها وتكثر عشبها وأشجارها

فظل عبد الرحمن سائراً في هذه الاراضي المخصبة آمناً على عسكريه ودوابه من العطش حتى بلغ نهر غارون المار لطولوز وبوردو وعرضه ربما يقرب في بعض الأماكن من عرض النيل . وطول الجسر الذي عليه في مدينة بوردو ٤٨٧ متراً فهو أطول من جسر القاهرة الذي على النيل نحو مائة متر . فلقى عبد الرحمن على ضفاف النهر الدوق أود بما جمعه في العسكر من قبائل الواسكون وبقية أهالي اكيثانيا وانتشب القتال بين الفريقين وكانت معركة شديدة انجبت عن انهزام الدوق وعسكريه وتحصنهم في قلعة بوردو فلاحتهم عبد الرحمن وحصر المدينة وفتحها بالسيف وأباح الغزو فيها لعسكريه فكانوا يسمونها مدينة برغشت واصبح ما بين مصب نهر غارون في المحيط وما بين مصب نهر الرون في البحر الشامي داراً للاسلام تلقن فيه الشهادة ويعلم القرآن . وهذا القسم العظيم من اوروبا قد أصبح اليوم جزيرة بسبب قناة الجنوب التي أنشأها الفرنسيون ويسمونها أيضاً قناة لانغدوق باسم الابالة القديمة . والبضاعة الواردة من البحر المحيط تدخل نهر غارون وتم بوردو ثم تدخل هذه القناة عند طولوز على مراب مخصوصة تسير موازية لنهر أود حتى تخرج في شمال نربون للبحر الشامي . وهم يتحدثون اليوم في توسيع هذه القناة وجعلها صالحة لسير السفن الكبيرة لتمر منها وهي آتية من قنال السويس وتستغني عن المرور في جبل طارق والطواف حول اسبانيا

فانتشر خبر فتح بوردو في بلاد الافرنج ودخل الرعب في قلوب الناس وفرح اكثرهم بفشل الدوق اود لمظالمه - لان المظلومين من الاهالي يفرحون دائماً بنكبة الجبابرة المستبدين الذين يمكنون فيهم ولا يراعون حقوقهم ويسوهونهم أنواع العذاب لمنافيتهم واغراضهم . ولذا كان الكثير منهم يهرعون لعبد الرحمن ويشوقونه للدخول في بلادهم واجراء العدالة الاسلامية فيما بينهم . اما الدوق اود فلم ارأى ذهاب ملكه فضم نفسه واستجار برفيقه شارل مارتيل وطلب نصرته رغم بغضه اياه لان الدوق اود وان لم يرق الى رتبة ملك الا انه كان مستبداً في اكينانيا كملك يفعل فيها ما يشاء ويختار وهو ذو اصابة وينتسب الى قلوبيس مؤسس سلالة ميروفينجيان صاحبة السيادة والحق الشرعي في الملك على قبائل الافرنج وعموم فرنسا . فاصالته كانت فائقة على اصابة شارل مارتيل لان شارل لم يولد من زوجة شرعية وانما زنى بأمه بين دوق اوستراسيا فولدته وكبر حتى خاف والده في مسنده وتلقب على ملوك اوستراسيا ونستريا وبورغونديا من آل قلوبيس حميد ميروفه وكان في الظاهر أمير الامراء وناظر السراي الملوكية وفي الباطن صاحب الامر والنهي في عموم فرنسا سيما بعد استيلاء العرب على مملكة اكينانيا . فلما استجار الدوق اود بشارل اجابه : دعهم الان فانهم كالسيل الجارف لا يصطدمون بشيء الا ابادوه وفيهم حمية تغنيهم عن التدرع بالدروع وفيهم شجاعة تكفيهم عن التحصن في داخل الفلاع ولا يزالون على ذلك الى ان تمتلئ أيديهم بأموال الغنائم فاذا تمنعوا بنعيم الدنيا وذاقوا لذائد الحياة وقع الطمع في رؤسائهم فانتسموا وتفرقوا فحينئذ نهجهم ونخرجهم من ديارنا » . وكان الامر كما قال . فان عبد الرحمن بعد فتحه بوردو رأى الاهالي مائلة اليه ووعدوه بالتسليم والانقياد وشوقه بعض رؤسائهم الى فتح تور وبوانيه لما فيها من الاموال والخيرات لان البلاد لم تكن في ذلك الوقت غنية ومعمورة كما هي اليوم وانما الاموال كانت مدخرة في الكنائس والاديرة وقصور الحكام الجبابرة . فتجاوز عبد الرحمن بالعسكر نهر غارون ووطىء بجياله ورجله تلك الاراضي المنخصة والكروم التي يعصر فيها أحسن نحر في الدنيا وعبر نهر دوردونيا وهو

يجمع في نهر غارون بقرب بوردو ويسميان حينئذ نهر جيرونند كما يجمع الفرات ودجلة ويقال لجمعها شط العرب . ويصب لاجيرونند في المحيط الغربي عند مدينة رويان الشهيرة بجماماتها البحرية والتي ينسب اليها سمك رويان المشابه للسردين . وتسمى ضفة لاجيرونند اليسرى من بوردو الى البحر ارض ميدوق وفيها شاتو لافيت وشاتو لاتور وشاتو مارغو وجميع كروم العنب والقصور التي بمصر فيها أطيب الخمر وثلى اسمائها المتنوعة على الزجاجات التي تباع في أوتيلات الازبكية وتفتح على على موائد أعظم الرجال . وعلى شاطيء نهر غارون قبل دخوله بوردو أرض سوتيرين وفيها شاتو ابكيم وثقبة القصور التي بمصر فيها الخمر الابيض الذي يشرب في أوائل الطمام عند اكل لحوم السمك

ولما وصل عبد الرحمن مدينة انكوليم وجد جيشا من الافرنج ففرق جمعهم ودخل المدينة منصورا ظافرا وفي غربها مدينة كونيك المنسوب اليها خمر الكونيك المعروف . وظل عبد الرحمن سائرا بهساكره المظفرة في تلك المروج والغابات الكثيرة المياه وكانت كجنان تجري من تحتها الانهار بالنسبة لصحاري افريقية ولحزيرة العرب . والفرسان ترتع وتلعب على خيولها ومعهم نساؤهم واولادهم حتي وصلوا مدينة بوانيه ففتحت لهم ابوابها . ويزعم مؤرخو الافرنج ان العرب سلبوا ما في كنيستها من أواني الذهب والفضة والاقمشة المزركشة . والمنصفون من هؤلاء المورخين يمتدحون العرب بالعدل والحق والرفق بالمغلبيين . ثم عبر عبد الرحمن نهر فينا المار بايالة فينا وهي التي مركزها بوانيه بخلاف فينا عاصمة النمسا التي حاصرها الاتراك وأقاموا عساكرهم المظفرة على أبوابها . وفي جنوب ايالة فينا ايالة أخرى يقال لها فينا العليا ومركزها ليموج . وما زال عبد الرحمن يتقدم حتى وصل مدينة تور وهي على نهر لوار المنصب في المحيط . وألحق أكثر من نصف فرانس بمالك الدولة الاموية الحاكمة اذ ذاك على الهند وما وراء النهر الى كاشغر والصين وتركستان . وكان الفاتح لها سنة ١١٩ هـ اسد بن عبد الله القسري فانه دخل بغزاة المسلمين بلاد الترك وقتل ملكهم خاقان وغنموا شيئا كثيرا

فمنهى الحدود التي وصل اليها العرب في اوربا هي نهر لوار ومدينة تور . وفي شرقيها مدينة ديجون ثم مدينة بزانشون . فالخط المار بهذه النقط يقسم فرنسا الى قسمين شمالي وجنوبي . والجنوبي باجمعه دخل في ملك المسلمين وأقاموا في بعضه قليلاً وفي بعضه كثيراً واستسلموا كثيراً من أهله وتزوجوا بناتهم وأعقبوا منهم ولم يزل لاهل الجنوب من الفرنسيين شبه بالعرب في سياء الوجوه

قال المؤرخ الانكليزي جيبون في ذكر حوادث سنة ٧٤٢م « تقدم العرب في اوربا اكثر من ثلاثمائة مرحلة (lieues) من صخرة جبل الطارق الى مصب نهر لوار كلها مظفرلات ولو تقدموا ثلاثمائة مرحلة اخرى لوصلوا حدود بولونيا في شرق اوروبا او جبال ايقوس من انكلتره واسهل عليهم عبور نهر الرين المار بالمانيا كما سهل عليهم عبور الفرات والنيل وكان الاسطول العربي من جهة اخرى دخل نهر التيمس بلا محاربة بحرية - لهدم وجود اسطول انكليزي في ذلك الوقت يضا هي اسطول مصر وسوريه او اسطول تونس - ولرأينا اليوم العلماء يفسرون القرآن في مدارس او كسفورد ويفقهون افراد أمة الانكليز المختنين ويشرحون لهم وهم مرتفعون على كراسي الوعظ معجزات النبي العربي . فالذي خالص العالم المسيحي من ذلك هو ابن الزانية شارل مارتيل ناظر سراي الملوك الفرنسيين من سلالة ميروفينجيان . » آه وذلك ان شارل المذكور لما رأى المسلمين لم يبق بينهم وبين باريس الا ٢٣٤ كيلومتراً حشد اليه المساكر الجرارة من القبائل الشمالية الالمانية وهم يمتازون عن سكان الايلات الجنوبية في فرنسا بطول القامة وزرقة الاعين وشقرة اللون وبالصبر في الحرب والمهارة في الطعن والضرب ولم يزلوا منصفين بهذه الاوصاف الى يومنا هذا ولذا اختار مقام السرعسكرية منهم المهلمين المكاتب الحربية في الاستانة مثل غولاج باشا وقبله مولتكه باشا مرتب حركات الجيش في حرب السبعين الفرنسية

وكان عبد الرحمن نازلاً بالعسكر امام مدينة تور في الوادي الذي يجري فيه نهر لوار ويحيط به سلسلتان من التلال تنقاربان كما قربتا من المدينة . فبغت شارل مارتيل المسلمين وهم في هذا الموقف المخرج وحاربهم من اعالي التلال وانتشب القتال بين

الفر يقين وأظهر عبد الرحمن من المهارة في حركات الجيش وسوق الفرسان ما حير
 اخصامه وانجبر أخيراً على الخروج من ذلك الموقع الضيق والرجوع الى سهول بواتيه
 وفيها التقى الجمعان واصطف الجيشان في محل لم يزل يقال له الى يومنا (موسه - لا -
 بانايل) ويراها المسافر من بوردوا الى باريس في القطار الحديدي على بعد عشرين
 كيلومتراً عن بواتيه شمالاً اي على الضفة اليمنى لنهر كاين المنصب في نهر فينا المنصب
 في نهر لوار . واستمر الفريقان بضعة ايام على اهبة الحرب والطعان وشارل لا يجسر
 على الهجوم خدعة منه وحذراً . ففتح عبد الرحمن الحرب وانزل للميدان مفرزة من
 فرسانه ودام القتال ستة ايام والنصر فيها للمسلمين وفي اليوم السابع هجمت عساكر
 شارل هجمة اليأس والقنوط على مكان الحريم والغنائم فانشغلت افكار المسلمين على
 اموالهم وعيالهم وقتل عبد الرحمن على رواية مؤرخي الافرنج بعد مقاومة شديدة
 وكان ذلك في شهر تشرين اول سنة ٧٢٢ م وسنة ١١٤ هـ ورجعت بقية السيوف
 من اهل الاسلام لا عن طريق رونسيفو بل عن طريق طولوز وقرقسون ونربون
 لرسوخ قدمهم في تلك الجهات . ولحقهم شارل مارتيل واسترجع مدينة افينيون ولم
 يقدر على استرجاع نربون فهدم ما في شمال نهر اود من الحصون والقلاع وصيره
 قفراً لكيلا يطمع فيه العرب . وقد نظم احد شعراء الفرنساويين المسمى (قارل
 دوست غارد) في حدود سنة ١٦٨٤ ديواناً عنوانه اخراج العرب من فرنسا وجعل
 فيه البطل الغوار في هذه الحروب شيلوبراند اخ شارل مارتيل فنكت عليه الشاعر
 بوالوجهه على مدحه بطلاً لم يحقق التاريخ وجوده بين ابطال تلك الحروب
 فاشتهر شارل في البلاد وصار الناس يتحدثون به في فرنسا وايطاليا وعموم
 اوروبا وبيرون عن شجاعته احاديث ملفتة . ويزعمون ان باطية او فأسه المسمى
 مارتو اومارتل قتل ما يربو على ثلاثمائة الف من العرب . غير ان واقعة بواتيه على
 التحقيق لم يكن فيها تغافل كبير على عساكر الاسلام ولو بقي في شارل بعدها
 قوة لاخرجهم من ناربون ورمى بهم الى ما وراء جبال البيرينيه وحصن منافذ الجبال
 وجعلها مانعة لهجومهم ولكنه لم يستطع ذلك . واستمر العرب في جنوب فرانس حقة



شارل مارتيل بجارب العرب في فرنسا

من الزمان سيما في اطراف مارسيليه ولم نزل نشاهد في متحف نربون كثيرا من اثارهم
واوانبيهم الخزفية . واليهم تنسب (جبال المور) وهي في شمال طولون ومارسيليه . كما
نسبت اليهم قسطل سارازين وهي مدينة بين بوردو وطولوز والقسطل هو الحصن او
القلعة ولم يزل في ضواحي القدس قرية يقال لها القسطل . قسطل سارازين معناها
حصن العرب وقيل غير ذلك والله أعلم

وكان هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين قد عين على فرقية عبدة بن
عبد الرحمن بمد استشهاده واليهما بشر بن صفوان الكلابي في فتح صقلية وهي جزيرة
سيسليا التابعة اليوم لاطاليا . غير ان ولاية عبدة لم تطل بل عزل ونصب مكانه
عبيد الله بن الجحباب وهو الذي ز بن تونس بالمباني الفاخرة وأنشأ في ساحلها دار صناعة
للسفن أي (ترسانة) كما يسميها الأتراك او (شانبة) كما يقول الافرنج . فلما بلغ عبدة
الله وفاة عبد الرحمن في واقعة بواتيه بعث واليا على جزيرة الاندلس عبد الملك بن
قطن فاصلىح حال الجيش وزوده وساقه على فرانس سنة ١١٧ هـ سنة ٧٣٥ م

فاستردوا الايالات الجنوبية التي في اطراف نربون وقرقسون وعلى ضفاف اود وعبروا نهر الرين وضبطوا ايالة بروفانس باجتماع سنة ١٢٠ هـ او سنة ٧٣٧ م من حاكمها مورونت ومركزه اوكس في شمال مرسيليه . وظلوا سائرين على سواحل البحر الشامي حتى دخلوا ايطاليا واغاروا فيها على مملكذ لومبارديا التي عاصمتها ميلان فاتفق ملكها لوي بران مع المتغلب على ملك الافرنج وهو شارل مارتيل دوق اوستراسيا وناظر السراي الملوكية وارجعا العرب الى قرب جبال البيرينه سنة ١٢٢ هـ او سنة ٧٣٩ م ولم يقدرنا على اخراجهم من نربون ولا من قرقسون . ثم ان عبيد الله بن الجبحاب والي افرريقية عين عقبه بن الحجاج على الاندلس فحضر اليها واستلم زمام الامر فيها فحصلت فتحته وتغلب عليه عبد الملك بن قطن الفهري فذهب عقبه بن الحجاج الى قرقسون في فرنسا وكانت عامرة بالمسلمين وبقي هناك الى ان مات ودفن في تربة قرقسون . فغضب هشام وعزل عبيد الله وولى مكانه كاثوم بن عياض والياً على افرريقية وبعث معه اثني عشر الف فارس من فرسان الشام يقودهم بلج بن بشر . فقتل كاثوم في المغرب الاقصى في واقعة جرت له مع البربر ودخل بلج بن بشر بعسكره جزيرة الاندلس وقاتل عبد الملك بن قطن وتولى مكانه . فبعث هشام لافرريقية حنظلة بن صفوان الكلبي والي مصر فجاء القبروان سنة ١٢٤ هـ او سنة ٧٤١ م واصلاح ما فسد في قبائل افرريقية والغرب الاقصى وبعث بالخطار الكلبي والياً على الاندلس فورد اليها ونزل قرطبة وفرق عساكر الاسلام في البلاد فانزل الدمشقيين في البيرة (الويره) وهي الولاية التي عاصمتها غرناطة وتكثر فيها المياه والغوطات والرياض ومدينة غرناطة مبنية على ثلاث تلال يمر من وسطها نهر حدارده (دارو) المنصب في نهر شنيل وهو

يسمي الافرنج عرب اسبانيا مور (Maurs) نسبة الى موريتانيا القديمة وهي عبارة عن تونس والجزائر وصراكش ويسمونهم ايضاً (Sarrasins) سارازين واختلفوا في اصل هذه الكلمة فقال بعضهم من سارقين العربية وقال آخرون بل نسبة الى ساره زوجة ابراهيم الخليل عليه السلام لانهم اولاد جارتها هاجر ام اسماعيل جد العرب وقال غيرهم انها تحريف شرقيين

ينصب في الوادي الكبير (غواد الكفير) المار بأشبيليه ولذا دعاه العرب نهر اشبيليه وفي غرناطة قصر الحمراء الشهير وغرناطة في جنوب ما دريد وعلى خط الطول المار منها وأما خط الحديد بينهما فمسافته ٦٩٦ كيلو متراً ولذا أطلق على البيرة وغرناطة دمشق . وانزل المحصين في أشبيليه (سفيلة) ويمر منها الوادي الكبير وفيها القصر المشهور عند الافرنج باسم (القازار) وكان دار الملك بني عباد . ولذا أطلق على أشبيليه حمص . وانزل أهل قنسرين على ضفاف الوادي الأبيض (غواد افياد) المنصب في البحر الشامي قرب بلنسية فأطلق على تلك النواحي قنسرين . وانزل أهل الاردن في مالقة (مالاغنه) وهي على ساحل البحر الشامي شرقي جبل طارق ويمر منها (وادي المدينة) واليهما ينسب البحر المعروف باسم (مالاغنه) . وانزل أهل فلسطين في سيدونيا أي مدينة شريش (اكيسرس) وما جاورها وهذه المدينة بالقرب من قادس على مسافة ٢٢ كيلو متراً عن البحر المحيط واليهما نسب كثير من الادباء فقيل لهم الشريشي ومنهم شايح المقامات وكتابه مطبوع في مصر وينسب اليها اليوم البحر المشهور باسم (شري) و (اكيسرس) وفيها فاز طارق بن زياد على رودريك ملك القوط وشتت عساكره واخذ ملكه . وانزل ابو الخطار الكلابي النصر بين في تدمير وهي الايالة المشتملة على مرسية وهي على نهر سفوره تبعد عن ساحل البحر الشامي المتوسط بين البجور ٣٥ كيلو متراً وبجانبها سهول هو ثرته المشابهه لوادي النيل في بركة المحصول وقوة الانبات ولذا أطلق عليها مصر ولم يزل فيه بقايا الترع العربية والقنوات وبينما كان المسلمون في الاندلس ينظمون شؤونهم ويستعدون لفتح بلاد الافرنج

نقلنا هذه الخلاصة التاريخية عن كتاب بلاد العرب (Arabie) الفرنسي نواي تأليف نوييل ديفرجه (Noel Desvergers) المطبوع في باريس سنة ١٨٤٧ وتقل هو عن المستشرق (Reinaud) مؤلف كتاب هجوم العرب على فرانس المطبوع سنة ١٨٣٦ في باريس واعتمد في ما كتبه على تواريخ العرب المحفوظة في المكتبة الاهلية وكانت تسمى قبلاً المكتبة الملوكية ولاسيما على تاريخ المقرئ وعلى تاريخ النويري وغيرها

ونشر الدين الاسلامي فيها واذا ظهر الفساد في دمشق عاصمة الممالك الاسلامية ودار خلافتها واخذت أمور الدولة بعد وفاة هشام وجلس الوليد (٨٤ - ١٢٦ هـ) ابن يزيد بن عبد الملك بن مروان حادي عشر خلفاء بني أمية . وجلس بعده في تلك السنة يزيد (٨٠ - ١٢٦ هـ) بن الوليد بن عبد الملك ثم أخوه ابراهيم . ثم رابع عشر خلفاء بني أمية وآخرهم وهو مروان الحمار (٧٠ - ١٣٢ هـ) ابن محمد بن مروان بن الحكم ولم ينتظم الامر ولا لواحد منهم بعد موت هشام ولا سكنت الفتن في أيامهم وانما لم تنقذ القنوحات في بلاد الافرنج

١٢ - داخية أوروبا بعد رجوع العرب عنها

اما فرانسفاستيقضت بسبب هذه الحروب من غفلتها واجنمتهت كما كتبها على شارل مارتيل نذر سراي الملوك من آل قلو فيس حفيد ميروفه فاستبد بالامر وصار الأمر النهائي في المملكة وزال نفوذ الملوك من سلالة ميروفينجيان وأصبحوا كالحلفاء العباسيين في آخر أمرهم . ولم يستطع شارل مارتيل ان يملك على الفرنساوين لشدة ظلمه وسوء سيرته وتعدبه على املاك الاديرة والرهايين ولكنه هيا الملك لولده ولحفيدة من بعده . واما هو فلم يرض بعمله المسلمين ولا النصراري لانه ضبط أوقاف الاديرة والكنائس ليجهز المساكر ويقوم بنفقات هذه الحروب العظيمة فأغضب بذلك الاساقفة والرهايين المتمتعين بهذه الاموال فلم يغفروا له هذه السيئة وأنغضوا العين عن جميع حسناته عليهم وحكوا في مجتمهم الرهباني (قونصل) في فرانسفا بكفره وخلوده في نار جهنم وراه أحد أوليائهم بعين الكشف وهو يعذب في النار والواعي تنهش في جثته المنتنه . فشارل مارتيل واضع أساس الدولة الثانية في ملك الافرنج لم يرض عنه المسلمون ولا النصراري . ولما مات قام بالامر بعده ابنه بين القيصر وحارب قبائل الجرمان في المانيا وقبائل اللومبارد في ايطاليا وكانوا معادين للباباوات في رومة فاكتمب بذلك نفوذا وقوة واتخبتة قبائل الافرنج ملكا عليها وأمر البابا بدهنه بالزيت المقدس وتويجه فدهنه وتوجه القديس يونيفاس أسقف ماينس سنة ٧٥٢ وانقرضت دولة ميروفينجيان بعسد ان

ملكت (٤٤٨ - ٧٥٢ م) ثلاثة قرون وسميت الدولة اشانية قارلو فينجيان نسبة الى شارلمان بن بين التيصر وحفيد شارل مارتيل واملت الدولة اشانية (٧٥٢ - ٩٨٧ م) قرنين ونصف قرن تقريباً . وفي سنة ٧٦٠ م أو سنة ١٤٣ هـ اغار بين التيصر على بلاد المسلمين واسترجع منهم نربون وجميع ايالة سبتانيا فلم يستطيعوا الدفاع عنها لاشتغالهم بما حدث عندهم من الانقلاب العظيم بسبب انقراض الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية مقامها . فقتلوا بني أمية واستخفي من سلم منهم فهرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ودخل الاندلس سنة ١٣٩ هـ أو ٢٥ ايلول (سبتمبر) سنة ٧٥٩ م فأطاعه بعض المسلمين فيها واستولى على أشبيلية وجعل قرطبة دار المملوكة وأخضع لحكمه جميع جزيرة الاندلس ونكل بالمتشيعين منهم للخلفاء العباسيين - فيفهم السبب الذي مكن الافرنج من استرجاع نربون وقرقسون

ولما مات بين سنة ٧٦٨ م وسنة ١٥١ هـ جلس مكانه على كرسي ملك الافرنج ابنه شارلمان (سنة ٧٤٢ - ٨١٤ م) ومعناه شارل الكبير فنسبت اليه السلالة الثانية من سلالات ملوك الافرنج وقيل لها (قارلو فينجيان) أي آل قارلو لان اسم شارل يلفظ بصور مختلفة حسب اللغات واللهجات فالالمان يلفظونه قارل وعند الاسبانول قارلوس وعند الانكليز چارلس بالجم الفارسية . ففتح شارلمان ممالك لومبارديه وعاصمتها ميلان وهي القسم الشمالي من ايطاليا وكان بين ملوكها وبين بابوات رومه ضفائن وعداوة فامتن البابا من ذلك وبارك شارلمان ورضي عنه ثم فتح بافاريه وصاقسونيا وهما من ممالك المانيا واخضع ايالة اكيثانيا التي كانت ميداناً ترمح فيه غزاة المسلمين . فجمع شارلمان في حكمه بين فرانس و المانيا وايطاليا ومزج الاقوام الجرمانية بالاقوام الرومانية وهم الذين كانوا في حكم دولة الرومان ولما تولى شارلمان كان مشتركاً في الملك مع أخيه اتباعاً للتواعد المرعية في ذلك الزمان وهي تقسيم الملك بين الاولاد ففي سنة ٧٧١ م استقل بالملك وجعل عاصمته اكس لاشابل وهي على نهر الرين في المانيا وزينها بالباباني والقصور ولذا يعتبره الالمانيون في عداد ملوكهم كما يعتبره الفرنسيون . وفي سنة ٧٧٨ م وسنة ١٦٢ هـ

تجاوز شارلمان بعساكره جبال البيرينه من ممر رونسيفو الذي مر منه عبد الرحمن حينما فتح بوردو وبوانيه وتور و مر منه قبلاً هنيئال القائد القرطاجني حينما قهر الرومانيين وهو ممر صعب في جبال البيرينه قريب من البحر المحيط ولذا لم يرجع العرب منه بل كانوا يتجاوزن على فرانس من جهة البحر الشامي عن طريق (بويسيردا) و (نربون) فصبط شارلمان ولاية نافار وولاية قطولونيا وتقدم على ضفاف ايدر حتى بلغ مدينة سرقسطه مركز ولاية اراغون والتي الحصار عليها وكانت بيد المسلمين . فبعث اليه عبد الرحمن الاول سنة ١١٣ - ١٧١ هـ (٧٣١ - ٧٨٧ م) الملقب بالعدل . بجيش منظم ظرد عساكر شارلمان من اسبانيا وارجمها الى ما وراء البيرينه . وكان المسيحيون من النفاريين والواسكون أي الباسك متفقين مع المسلمين حبا في العدل الاسلامي وكرها في ظلم شارلمان لوطئه بالمسكر بلادهم وقتله رجالهم وأولادهم ولذا رجحوا الاتفاق مع المسلمين مع انهم على غير دينهم وانتموا من شارلمان وجنوده وهو يدين باهم يدينون به

والدين انصافك الاقوام كلهم وأي دين لا يبي الحق ان وجبا

والمرء يعيبه قود النفس مصحبة للخير وهو يقود العسكر اللجبا

فلما ارتدت جنود شارلمان على عقبها خاسرة اغتتم أهالي نافارا وغسكونيا المسيحيون هذه الفرصة واتقضوا عليهم وهم في ممر رونسيفو وبادوهم عن آخرهم وقتل في هذه المعركة رولان قائد الجنود البريطانية نسبة الى ايبالة بريطانيا في غرب فرانس ورفيقه اوليفيه ونظمت في هذه الواقعة أغاني رولان الآتي ذكرها وهي عند الفرنسيين كقصص عترة عندنا لابل كقصص بني هلال او الزير واسترد عبد الرحمن العادل وهو المعروف بالداخل ولاية اراغون وقطالونية واسترد ابنه هشام (١٤٠ - ١٨٠ هـ) مدينة جيرونيه ونربون وجميع ايبالة سبتانيا سنة ٧٩٢ م (سنة ١٧٦ هـ) واستخدم الاسرى في بناء جامع قرطبة وكان أبوه قد باشر عمارته . فنصب شارلمان ابنه لويس ملكاً على اكيانيا وأمره بمحاربة العرب فكانت بينهما حروب على سفح جبال البيرينه من سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) وهي السنة التي توفي بها هشام وجلس فيها ابنه

الحكم خلفاً له وخرج عليه عماء سايمان وعبد الله ابنا عبد الرحمن وثجار بوامدة وكان النصر للحكم على عميه ودامت الحروب مع الافرنج الى سنة ١٩٧ هـ (٨١٢ م) وأخذ الافرنج في هذه الحروب ولاه نافارا وسبتانيا وجزءاً من قطلونيا وهو المشتمل على مدينة برشلونه التي على ساحل البحر الشامي . فشارلمان لم يتمكن من اسبانيا ولكن حكمه كان نافداً في عموم أوروبا الغربية وكان البابا وعموم الكنيهة يميلون اليه ويرغبون في اعادة نفوذ امبراطورية الرومان الغربية ليضاهوا بذلك الامبراطورية الشرقية القائم بها قياصرة الروم ويحصلوا على العز الذي حصل عليه بطاركة القسطنطينية وكهنتها المنشقون ولذا دهن البابا شارلمان بالزيت المقدس والبسه تاج الامبراطورية في آخر القرن الثامن اي سنة ٨٠٠ م (سنة ١٨٤ هـ) .

وكانت الخلافة العباسية في بغداد بلغت منتهى العز وأوج الرفة على عهد الرشيد فأخذ شارلمان يتقرب منه وبعث اليه بسفارة مؤلفة من سفيرين فرنسا وبين يصحبهما يهودي اسمه اسحق وكان الخليفة يحارب قيصر الروم فرأى من السياسة التمايل الى الافرنج اعداء الامويين فأحسن ضيافة الوفد الافرنجي وأكرم مشواه وأجاب طلبه بالرخصة لحجاجهم في زيارة بيت المقدس وبعث الى شارلمان بهدية فاخرة منها سرادق كبير من الحرير وساعة دقاقة وشطرنج لم يزل بعض أحجاره محفوظة في المكتبة الاهلية بباريس وهي من العاج دقيقة الصنعة والقطعة منها كبيرة الحجم . وكان ذلك قبل موت الرشيد بسنة اي في سنة ١٩٢ هـ (٨٠٧ م) وتوفي شارلمان بعد ذلك بسبع سنين اي سنة ٨١٤ م وجلس في مقامه ابنه لويس الى سنة ٨٤٠ م ثم انقسمت المملكة الى ثلاثة أقسام المانيا وفرنسا وإيطاليا وضمف حال ملوك فرنسا وهجم عليهم الاقوام الشمالية الذين يسمونهم نورمان من بلاد اسوج ونوروج والدانيارك وأسوا في شمال فرنسا دوقية نورماندية وانقسمت المملكة الى دوقيات وكونتيات وكان حكامها أشد نفوذاً من الملك . وصارت السلالة اثنانية من سلالات ملوك الافرنج الى ما صارت اليه السلالة الاولى فاستبد بالامر دوق فرنسا كما استبد قبله دوق اوستراسيا وفعل هوغ قابت ما فعله ابن شارل مارتيل وحدث السلالة الثالثة في

مملكة الافرنج وهي سلالة قابتيان . ومايكت هذه السلالة الثالثة من سنة ٩٨٧ م الى سنة ١٤٢٨ م وفي زمنها ظهرت فرانساً لوجود وسميت مملكة فرانساً نسبة الى هوغ قابت دوق فرانساً وانتقل الملك بعد ذلك الى فرع ثامن من تلك السلالة وهو المسمى فالوا ثم الى فرع ثالث وهو آل بوربون

١٣ - فتوح المسلمين في جنوب أوروبا والحروب الصليبية

ثم ان المسلمين عدلوا عن فتح فرانساً وعلاهم فعلوا ذلك لشدة البرد في الاقاليم الشمالية وعدم توسع العمران فيها اذذاك ولصعوبة المرور من جبال البيرينة وهي أشد برداً من جبال لبنان التي يقول فيها المتنبي

وجبال لبنان وكيف بقطعها وهي الشتاء وصيفين شتاء

ومالوا الى فتح جزر البحر الشامي فاستولوا على جزائر باليار وهي مايورقه ومينورقه وأفيس وما يتبعها سنة ٨٢٠ م (سنة ٢٠٥ هـ) وكانوا يسمونها (مايرقه) و (مزرقه) ويابسة واستمر وافيها الى سنة ١٢٣٢ م . واستولوا سنة ٢٢٦ هـ على جزيرة قورسيقة فبقيت مستقلة عن غيرها بالحكم الى سنة ٢٣٦ (٨٥٠ م) . وأغاروا على سواحل مرسيليا مراراً وأسسوا سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) مستعمرة فراقسينه فيما بين وينيس طولون وكان الفينيقيون اسسوا قبلهم مستعمرة في جوار موناكو . ومكث المسلمون في فراقسينه طول القرن العاشر وتزوج بعضهم بنساء تلك الايالة الفرنسية واشتغلوا بفلاحة ارضها حتى اصبحت زاوية مجزارتهم . ثم جالوا سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) في اقليم تارنتيزد ووالس ثم في بلاد السويس (سويسرا) التي نهبا المجر قبل ذلك ومدوا نفوذهم سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) على فريجيوي وطولون وجميع سواحل البحر الشامي في فرانساً ولم يزل يقال للجبال التي في شمال مرسيليا وطولون (جبال المور) ومدوا نفوذهم على ايطاليا أيضاً . فان بني الاغاب استولوا على جزر سينيليا (صقلية) ومالطة وسردانية وجميع القسم الجنوبي من ايطاليا في حدود سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) الى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) درستخت لهم قدم في جميع هذه البلاد واستبحر فيها عمرانهم وحسنت بهم الزراعة والصناعة وكانت مدينة امالفي ومدينة ساليرم وهما في جنوب نابولي

(وكتبوها نابال) زاهيتين بجزارتهم وهما اليوم قر بنان خربان لم يزل يشاهد فيهما اثر العرب وبمايا الطواحين التي عمروها ولسان الحال يقول : ان آثارنا تدل علينا فانظروا بمدنا الى الآثار . واستولوا على أوسنتيه وكانت ميناء رومية العظمى وهي بقرب مصب نهر التير وعلى بيزا ذات البرج المائل وكانوا يسمونها (بيش) وعلى جنوه التي في شمالها بقي المساهون في جزيرة (سردانيه) سردانيه الى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) وفي طارانت التي في جنوب ايطاليا الى سنة ٤٣٥ هـ (١٠٤٣ م) وفي سيديليا الى سنة ١٠٧١ م وفي بيزا الى سنة ٣٩٦ هـ (١٠٠٥ م) وفي جين (جنوه) الى سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) . (انظر خريطة مملكة العرب في اطلس شرادر الفرنساوي المطبوع أخيراً في باريس)

واخناف المؤرخون في التاريخ الذي اثار فيه العرب على ليون وما في شمالها من الايالات الفرنساوية - لا ليون التي في شمال اسبانيا الغربي وتكتب (Léon) ويكثر ذكرها في تواريخ العرب - هل كان في عهد شارل مارتيال فقط أم في عهده وبعد ذلك أيضاً حينما دخلوا من سواحل طولون وفتحوا في الشمال حتى بلغوا بلاد السويس . ولكن المؤرخين متفقون على ان المسلمين ضبطوا ايالة دوفينه وهي في شمال بروفانس على ضفة الين اليسرى وضبطوا في شمالها أيضاً ايالة بورغونية وسموها (ارض بورغونية) وايالة فرانش كوتة واياالي فينا - وفيها هذه ايالة في وسط فرانس الغربية بخلاف سميتها عاصمة اوستريا والمجر وكان حاصرها الاتراك - وضبطوا في فرانس جميع ضفاف الرون وغزوا القرى والمدن التي في تلك الايالات . وامهات هذه المدن هي : ليون وهي على نهر الرون وأول مدينة في فرانس بعد باريس ثم ماقون واليهما ينسب الخمر المسمى باسمها من خمر بورغونية ، وشالون التي على نهر السون ، وبون وسمها العرب (بونة) ، واوتون واحترقت فيها كنيسة سان عظيمتان حينما هاجمها العرب كنيسة سان ناظير وكنيسة سان جان وكذا دير سان مارتن ، وديجون وهي منتهى ما أخذوه في الشمال من المدن العظيمة . وفي شرقي ديجون وبالقرب منها مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوغو .

وجميع هذه المدن هي في ممر السكة الحديدية من باريس - ليون - البحر المتوسط أي مرسيليا وماجاورها من المواني البحرية . ولم يجد العرب الا كثرية في غزواتهم لان البلاد لم تكن في ازدهار والعمران التي هي عليها اليوم ولكن مقصدهم الاصيلي كان اعلاء كلمة التوحيد ودعوة الامم بقولهم « تمالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نُشرك به شيئاً ولا يتخذنا بهتافاً من دون الله . »

الحروب الصليبية

فجميع الحروب التي وقعت بين الساميين والنصارى من ابتداء ظهور الاسلام بمكة وفتح المسلمين للقدس الى عهد ثاني الخلفاء الراشدين هي من نوع الحروب الصليبية . الا ان المؤرخين اصطاحوا على اطلاق هذا الاسم على الحروب التي وقعت بين المسيحيين من الامم الاوروبية وبين المسلمين من الامم الشرقية وامتدت من القرن الحادي عشر الى القرن الثالث عشر للميلاد وكان الباعث عليها التعصب الديني والغاية منها تخليص قبر السيد المسيح عليه السلام . واتخذ المحاربون من الامم الاوروبية الصليب شعاراً لهم ونقشوه على أثوابهم وجلودهم ولذا قيل لهم الصليبيون . وعدة الحروب الصليبية ثمانية وهي :

الاولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩ م) - الحرب التي دعا اليها بطرس الناسك وقرر اجراها البابا اوربين الثاني في المجمع الروحاني المنعقد سنة ١٠٩٥ م في مدينة كليرمون فيران وهي بالقرب من مدينة ليون في فرنسا . وكانت النتيجة ارسال جيشين للشرق احدهما تحت قيادة بطرس الناسك والقائد غوتيه وكان مؤلفاً من اناس لا خبرة لهم في الحرب ومعهم نساؤهم وأولادهم بغير تأهب للسفر فمات اكثرهم في الطريق وقتل آخرهم الساجوقيون في بر الاناطول . والثاني جيش متأهب للسفر ومتسلح للحرب تحت قيادة غودفروا دوبوليون درق ايالة اللورين . عبروا بوغاز لدردنيل واستولوا في بر الاناطول على ازنيق وطرسوس وهي ميناء اطلت على انطاكية وكانت هذه المدن تابعة للدولة الساجوقية ومركزها قونية . ثم استولوا على القدس

وكانت تابعة لحليفة مصر العالوي وقتلوا فيها كثيراً والبسوا غودفروا تاج الملك .
 وذهب المستنفرون الى بغداد فلم يستطع أهلها غير البكاء وقل المظفر الايبوردي
 أبياتا منها :

وكيف تنام العين ملء جفونها على هفوات ايقظت كل نائم

واخوانكم بالشام يضحى مقيام ظهور المذاكي أو بطون القشام

الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩) الحرب التي دعى اليها القديس برنار وقادها قونراد

الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرانسوا فوصلوا دمشق الشام وحاصروها
 ورجعوا عنها

الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٣ م) الحرب التي دعى اليها غايوم أسقف صور

بسبب استرداد صلاح الدين الايوبي للقدس . وقادها فريدريك بارباروس
 امبراطور المانيا من جهة وفيليب اوغوست ملك فرانسوا ورينشارق الاسد ملك
 انكارة من جهة اخرى . فالاول غرق في النهر بعد أخذه قونية . والاخران اخذا
 قلعة عكا وعقدا الصلح مع صلاح الدين

الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤ م) الحرب التي دعى اليها فولك وقادها بغدوين

وهو بودوين التاسع كونت ايالة فلاندر وكانت ايالة مستقلة بين فرانسوا وبلجيكا .
 فلما وصلت هذه البعثة الى فينيسية (البندقية) استدعاها قيصر الروم في القسطنطينية
 لنصرته على أخيه وكان قد اراد التغلب عليه فأجابت دعوته وأيدته على كرسي مملكته
 وبعد وفاته انتخب الصليبيون مكانه بودوين المذكور بعد أن خربوا المدينة وأتلفوا
 ما فيها من الآثار النفيسة والمباني الظريفة واستمرت دولة اللاتين في القسطنطينية
 ٥٧ سنة (١٢٠٤ - ١٢٦١)

الخامسة (١٢١٧ - ١٢٢١) الحرب التي أشهرها جان دو برين ملك القدس

واندره الثاني ملك هونغارية وذهبوا فيها الى مصر وعادوا منها خائبين

السادسة (١٢٢٨ - ١٢٢٩ م) الحرب التي قادها فريدريك الثاني امبراطور

المانيا لادعائه بميراث مملكة القدس عن جان دو برين . فعقد مع الملك الكامل

معاهدة الصلح واستلم بموجبها القدس

السابعة (١٢٤٨ - ١٢٥٤ م) الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا ايفاءً بنذر نذره . فخرج لمصر وغلبه الملك الكامل خامس الملوک الايوبية في محاربة المنصورة واسره فأخلى دمياط وسلمها للمسلمين فكافأ لاسره

الثامنة (١٢٧٠ م) الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقديس لويس ومات فيها امام اسوار تونس الخضراء . فاسترجع المسلمون حينئذ مدن فلسطين وسوريا من الافرنج واحدة بعد الاخرى . وكان آخرهن فتح عكا سنة ١٢٩١ م وانتهت بذلك الحروب الصليبية

وكان لهذه الحروب نتيجةان احدهما مادية عسكرية والاخرى معنوية أدبية فالنتيجة المادية رجوع الافرنج عن الغنيمة بعد الكد بالقتل وتخليتهم القدس وجميع ما ملكوه في الشرق . والنتيجة المعنوية انبياهم من الغفلة التي كانوا فيها بمخالطتهم المسلمين وأهل الشرق وسلوكهم منذ ذاك التاريخ سبيلي « الانتظام » و « الترقى » . ويسميها الافرنج (اوردر وبروغره) . قال رينان « حدث بعد الحرب الصليبية الثامنة التي قام بها لويس التاسع ومات على أبواب تونس حركتان واضحتان من جهتين مختلفين الاولى انحطاط العالم الاسلامي والاخرى نهوض العالم المسيحي لان العلوم الاسلامية ما لتحت جرائم الحياة في جسم البلاد الاوربية انطقت جرائم حياتها . وأخذ العالمان يسيران في وجهتين متعاكستين علواً وهبوطاً »

سارت مشرقة وسار مغرباً شتان بين مشرق ومغرب

١٤ - ما اقتبسه الافرنج من قواعد الشعر العربي

فيتضح لك من هذه النبذة التاريخية الممتضة في هذه الرسالة ان الاختلاط بين العرب والافرنج لم ينقطع لافي الحروب الصليبية ولا قبلها حينما دخل العرب أرض فرنسا وتوطنوا في جنوبها وحرثوا أرضها وتزوجوا بناتها وتاجروا مع أهلها وعمروا مدن نربون (نربونه) وقرقسون (قرقشونه) وفراقسينه واخذوا الاسرى من الافرنج وشغلهم في عمارة جامع قرطبة القائم ليومنا هذا على الف وثلاثة وتسعين

عموداً وفي غيره من المباني الفاخرة كالقصر والزهراء والحرماء والتمنطرة . فكانت الافكار تتبادل بين الفريتين ضرورة ولو كانا على طرفي نقيض . وحيث كان المسلمون في ذلك العصر ارقى حضارة وأدباً من جيرانهم المسيحيين كانت الافرنج تبتس من معارف المسلمين وتحصل العلم في مدارسهم وجوامعهم كما فعل البابا سيلفستر الثاني . واسمه الذي سماه به أبوه جربر (٩٣٠ - ١٠٠٤ م) فانه بعد ان حصل مبادئ العلوم اللاهوتية باللغة اللاتينية في مدينة أوريياق التي ولد فيها وهي بالقرب من طولوز وفي شمالها الشرقي ارتحل في طلب العلم الى الاندلس فقطع عقاب البيرينه والوادي الكبير المار بجوار قرطبة ومن اشبيلية والمنصب في خليج قادس من المحيط غير بعيد عن شريش وجاور في مدرسة اشبيلية ثلاث سنين وعاد لاوروبا متبحراً في العلوم والمعارف حتى حسبه الناس ساحراً واتخذه الملوك مؤدباً لاولادهم وثقاب في المناصب حتى احرز رتبة الباباوية . وقبل انه اول من ادخل لبلاد الافرنج مايسمونه الارقام العربية ونسبته الارقام الهندية وهي التي تدل بذاتها على عدد وبنزاتها على عدد آخر . وكانوا لذلك المهدي يستعملون الاحرف اللاتينية التي هي بمثابة الحروف الابطينية

واقفى طلاب العلم اثر هذا البابا الحكيم وكذا المنقولون منهم للشعر والادب كانوا يقلدون شعراء العرب وأدباءهم . وكان المجاورون للعرب من أهالي فرنسا وشمال اسبانيا يجيدون عن تعلم اشعار اللاتين ويكبون على تعلم اشعار العرب وأزجالهم . وكان فقراؤهم في القرن الحادي عشر الميلاد ينشدون الاناشيد والمدائح العربية وهم يستعطون على الابواب وفي الطرقات فيستمع الناس لهم ويتصدقون عليهم لانهمهم مايقولون وانما شوقاً منهم وحناناً للالمان والانعام والقوافي الرنانة كما كانت العربية هي اللسان الرسمي في صقلية على عهد رجار ومن خلفه من الملوك بعد انقراض الحكومة الاسلامية منها وكانوا يجررون بالعربية على المباني العمومية في تلك الجزيرة

وذكرنا فيما تقدم ان لغة « رومان » وهي لاتينية سوقية محرفة بكلام الغولوا والفرنك انقسمت الى شعبتين (١) لسان اوق تكلم به أهل الجنوب لاسيا

سكان بروفانس (٢) لسان اويل تكلم به أهل الشمال لاسيما سكان جزيرة فرانس
وهي الايالة التي عاصمتها باريس وكان في الشمال شعراء يقال لهم (تروفير) وفي
الجنوب شعراء يقال لهم (تروبادور) . فان تروبادور الذين كانوا في ايالة بروفانس
هم صنف من المداحين يطوفون من قصر لقصر ومن قلمة لاخرى يغنون قصائدهم
ويمدحون الامراء وذوي الوجاهة ويسمون اديهم بالعلم المطرب . ولم تكن اشعارهم
ذات قواف كاشعار العرب وانما لها بدل القافية مراكز ومواقف كالاشعار التي يتغنى
بها رعاة الغنم . وكان لهم فن من الشعر يسمونه تenson (Tenson) على شكل
المتخاطبات يشابه ما أوجده الاندلسيون من الفنون الشعرية . وأجمع العارفون على
ان القوافي اول ما ظهرت في الشعر البروفانسال وانها مأخوذة من العرب .
فالقافية عند الفرنسيين هي اتحاد الاحرف الصوتية الاخيرة وما يتبعها من الاحرف
الساكنة في نهاية كل بيتين أو مقطعين من الشعر مثل ساج وباج (sage, Page) فالذي
أخذوه عن العرب بالسمع والتقليد هو علم القوافي وكانوا يستعملون قبل ذلك عوضاً
عن القافية ما يسمونه (اسونانس) وهو اتحاد الاحرف الصوتية الاخيرة بقطع النظر
عما بعدها من الاحرف الساكنة في نهاية كل بيتين مثل ساج (Sage) وآرم
(arme) وكان استعمالهم للقوافي في القرن الثالث عشر وأخذوا عن العرب في
المنظوم أنواع المدح والغزل والنسيب والهجو والهزل أي ما يسمونه ايريك وما يسمونه
ساتيريك . كما أخذوا عنهم في المنشور القصص والملح وضروب الامثال ومنها ما نقلوه
نثراً ثم نظموه في لغتهم . وجاروا العرب في الفكاهات أيضاً فألفوا حكايات
وتنظير يقات على أفسة القرى وخدمة الكنائس ليضحكوا منهم الامراء والفرسان الذين
يسمونهم « شيفاليه » . وفي هذه الحكايات والنوادير المأخوذة عن العرب ما أصله
الاول من حكايات الفرس والهنود وترجمت الى العربية ثم نقلت للافرنجية . فلو كان
الحكم والغلبة لاهل الجنوب المجاورين للعرب وللغتهم المسماة « أوق » لوجدنا في اللغة
الفرنساوية الحالية شيئاً كثيراً من فنون الادب العربية . ولكن الحكم والغلبة كانتا
لاهل الشمال وللغتهم المسماة « اويل » وكان شعراؤهم التروفير لا يعرفون غير اشعار

الحاسة وقصائدهم قصيرة والبيت مؤلف من عشرة هجاءات ليس له قافية وانما له (اسونانس) كما في أغاني رولان الآتي ذكرها واستمر واعي هذا النظم الى آخر القرن الثاني عشر . وفي القرن الثالث عشر أخذ شعراء الشمال وهم التروفير ينسجون على منوال (التروبادور) وتعلموا منهم القوافي ورقة الغزل واللحن الموسيقي وصار فرسان الافرنج يقدون فرسان العرب في اتحال الشعر فكانت فضائل الفارس المهارة في الفروسية وحفظ الشعر والتأمل به وفي لعب الشطرنج . فتحسن الشعر الافرنجي بادخال القوافي العربية فيه و باقتباس أدب الاندلسيين ورقة غزلهم

١٥ - اقتباس الافرنج اقاصيصهم عن العرب

والحاصل ان الرومانيين لما فتحوا أرض الغول ادخلوا اليها مدينتهم ولغة عوامهم وهي اللاتينية الدارجة فلما استولى قبائل الافرنج على أرض الغول أخذوا ما وجدوه فيها من اللسان والمدنية فنتج من هذا الاختلاط لغة جديدة قيل لها « رومان » . وأقدم المدونات في هذه اللغة هرمان ستراسبورغ وهو صورة القسم الذي اقسم به العسكر لاحفاد شارلمان حينما عقدوا معاهدة فيردون وقسموا مملكة شارلمان الى ثلاثة أقسام فرانسا وجرمانيا وايطاليا وأخذ كل منهم قسماً وذلك في سنة ٨٤٣ م وسنة ٢٢٩ هـ أي في خلافة الواثق بالله هارون بن المعتصم بن هارون الرشيد في بغداد وعبد الرحمن بن الحكم في قرطبة . فهذه أول مرة دونت فيها لغة رومان وقامت مقام اللغة اللاتينية . ثم انقسمت لغة رومان الى لسان اويل والى لسان أوق . وانقسم لسان اويل وهو لسان الشمال الى لهجات غالب على الجميع لهجة جزيرة فرانسـا وهي الجزيرة المحاطة بالانهار المشتملة على باريس وما في جوارها - فصارت اللغة الفرنسية . ثم عم استعمال هذه اللغة في الآيات الجنوبية وغلبت على لسان أوق سنة ٩٨٧ م حينما تأسست الدولة الثالثة من دول الافرنج وهي الدولة التي دامت الى حدوث الانقلاب الكبير وظهور الحكومة الجمهورية . وكان مؤسس الدولة الثالثة هوغ قابت دوق جزيرة فرانسـا فأطلق هذا الاسم على عموم المملكة وعلى اللغة ولما كان اتساع دائرة النظم في تاريخ الادب سابقاً لا اتساع دائرة النشر كان

الكلام المنظوم أساساً للادب الفرنساوي . وأقدم نظم فيه هو « اغاني رولان » وتاريخ نظمها في النصف الاخير من القرن الحادي عشر ونظمها أو ناظموها مجهولون ولا دليل على انه تيرولد المذكور اسمه في آخر بيت منها . ورولان هو قائد جنود شارلمان الذين حاربوا الانداسيين . وذلك ان شارلمان لما فتح الفتوحات العظيمة وفتوح بتاج الامبراطورية واستحصل من الخليفة العباسي علي الاذن لحجاج النصارى في زيارة بيت المقدس طار له ذكر في الافاق وتحدث الناس به ونظموا فيه القصائد وقصوا عنه القصص والحكايات وانشدوا الاناشيد وفعل الافرنج له ما فعله العرب لهارون الرشيد . غير ان فنون الادب الافرنجية لم تكن زاهرة كفنون الادب العربية بل كانت حديثة النشأة لم تهذب بعد وكانوا يكتبون باللغة اللاتينية ما يحتاجون الى كتابته وتدوينه ولم يكن الملوك والامراء ولا الرعية يفهمون اللاتينية النصحى وانما كان يفهمها بعض الاساقفة والراهبين فنظمت (اغاني رولان) و (حج شارلمان) باللسان الفرنساوي الذي كان يتكلمه أهل ذلك العصر أي بمد شارلمان باكثر من قرن . وفي اغاني رولان من المبالغات ما في قصة عنتر وجسمت فيها الحرب التي حصلت بين الافرنج وعرب الاندلس وجمعت رولان عنتر زمانه والحكمة بنسب شارلمان وادعت بانه ابن أخيه وذراعه اليمنى . وذكر في هذه الاغاني ان سبب هزيمة رولان هو خيانه غانياون . وذلك ان رولان بعث بتابعه غانياون الى والي سرقسطة مركز ولاية أراغون بمهمة حربية وكان في ذهابه اليها خطر على حياته فاغتاض هذا المأمور من أمره وانضم الى المسلمين ودبر في قتل رولان وانتهزاه . فلما رجع رولان ببقية الجنود الى فرنسا ووصل مضيق رونسيقو في جبال البيرينه هجم عليهم أهالي نافارا وغاسكونيه المنتفون مع المسلمين في جيوش جرارة عدتها اربعمائة الف فارس . وكان لرولان مستشار ورفيق اسمه اوليفيه فنصحوه بالاستمداد من شارلمان واستدعاه لتجديده فلم يصنع في بادئ الامر لقاله . ولما أراد ان يعمل برأي اوليفيه العاقل ويتبع مشورته فات الوقت وذهب الاوان وغلبهم العدو بكثرة عدده وامسوا مخنبطين في ظلام النقع وقتل بعضهم بعضاً وضرب اوليفيه صاحبه رولان بالسيف ضربة خطأ

لا عمد فخره وسببت موته فصورت تلك الاغاني موت رولان ثم موت اوليفيه
 وطلب كل منهما السماح من الآخر ومباركة الاستف تورين عليهما وغفران
 ذنوبهما . واراؤ رولان قبل موته ان يكسر سيفه المسمى (دوراندال) ائلا يقع في
 ايدي اعدائه او يصل الى مارسيل Marcile والي المسلمين في سرقة فلم يستطع
 كسر هذا السيف لانه من السيوف التي لا تكسر ولا تفل ولعله من المعدن المسبوك
 منه صمصامة عنقورة وذو الفقار علي رضي الله عنه وهو الذي قيل فيه لاسيف الا ذو
 الفقار . وقد تهور الافرنج في وصف (دوراندال) كما تهورت الشيعة في وصف ذي
 الفقار وجعلوا القوة والشجاعة بأجمعها في السيف حتى لم يبق منها شيء لصاحب السيف
 ولم يزل اثر الضربة التي ضرب بها رولان الصخرة بسيفه باقياً الى يومنا هذا يشاهده
 السائحون والمارون بمضيق رونسيو كما يشاهدون تل العلائف في جوار قرية اريجا
 من فلسطين وهو التل الذي احدثه على زعمهم جيش ابي زيد الهلالي حينما مروا
 بقرية اريجا وارادوا الصعود الى جبل القدس فنفضوا نخالي الشعير في اسفل العقبة
 فنكروم من الغبار الذي فيها هذا التل العظيم لانهم كانوا لا يحصون عدداً لكثرتهم .
 هذا ما تناقله الالسنه ويرويه الالباء عن الالجداد ولعل الباحثين في الاثار القديمة
 لو حفروا في تل العلائف لوجدوا فيه اثراً من الاثار كما لو بحث العارفون بطبقات
 الارض وبشكل الجبال لذكروا سبباً (لضربة رولان) في صخرة رونسيو . وارولان
 حصان كانه هو وابجر عنقورة بن شداد فرسارهان . ولم يفت ناظم اغاني رولان ذكر
 الملائكة وكيفية نزولهم واصطفاؤهم حوله لقبض روحه . فصور في منظومته الجهاد
 المسيحي وجعل فضائل المجاهدين الشجاعة العسكرية والطاعة لاولي الامر وهم
 (السوزيرين) والتصالب في الدين المسيحي وبعض من لم يعتقدوا بما امر به وبنتهوا
 عما نهى عنه بفضلاً لوجه الله لا لهداوة دنيوية ولا لمال ودولة . وهذه الاغاني مطبوعة
 ومترجمة للفرنساوية العصرية ومنها يظهر اعتقاد الافرنج اذ ذلك في الاسلام والمسلمين
 فانهم كانوا يحسبون المسلمين دعاة الى عبادة الاصنام ويمدون من اصنامهم ابولون
 ولم يزل الكثير من اهل القرى الفرنسية يعتقدون هذا الاعتقاد الى يومنا هذا

كما تبين لي من محادثة الكثيرين منهم . وكان لاغاني رولان شأن في عموم اوربا وفي انكارة وترجمت في القرن الثاني عشر الميلاد اللغة الالمانية ولغة السويد والنرويج

ومما نظم على نسق اغاني رولان حج شارلمان الى بيت المقدس وقصائد وحكايات كثيرة في الحروب الصليبية ربما يعني في المستقبل بترجمتها ومطالعها المشتغلون بالتاريخ العربي كما يعني الا فرنج في زماننا في استخراج الكتب العربية وطبعها وترجمتها ليقتفوا منها على حقيقة تاريخية يوضحون فيها ما غمض من تاريخهم . وفي اواخر القرن الثاني عشر واوائل القرن الثالث عشر اقبل شعراء الشمال ينسجون على منوال شعراء الجنوب ويقتبسون منهم المستنات الشعرية ورقة الغزل والقوافي العربية ووضعوا الالحان الموسيقية ونزلوا بها وطبع من ذلك دواوين ورسائل كثيرة لا حاجة لذكرها . ثم ظهرت الاشعار الهجوية والمزلية والملح والفكاهات مما هو على نسق كائلة ودمنة وضروب امثال لقمان وبقية الحكايات المؤلفة على السنة الحيوانات . فن ذلك (رومان الثعلب) و (امثال ايزوب) و (رومان روز) وغير ذلك . وقيل للمنظوم من ذلك (الاغاني) او (اغاني القصص)

١٦ - اقتباس الا فرنج العلوم عن العرب

ولما اخنط ملوك اوربا وامراؤها بملوك الشرق وامراء المسلمين في اثناء الحروب الصليبية رأوا بأعينهم ادباء العرب وشعراءهم ومؤرخيهم واطباءهم وحكماءهم سيما من كان منهم بمعية صلاح الدين الايوبي مثل القاضي الفاضل والعماد الكاتب وعمارة اليميني الشاعر والطبيب الحاذق الذي طبب ريشار قلب الاسد فقدروا الادب حتى قدره واعترفوا بلزوم وضع تاريخ لدولتهم . فألف بعض الرهبان الساكنين طريقة القديس ديني (St. Denis) تاريخاً لدولة الا فرنج . وكان ذلك على عهد لويس التاسع الملقب بالقديس وهو المتوفى سنة ١٢٧٠ م في تونس اثناء الحرب الصليبية الثامنة . فكان هذا التاريخ أول سجل لضبط وقائع ملوك الا فرنج وتاريخ جلوسهم ووفاتهم وذكريهم من أخبارهم وحروبهم . وداموا على هذا السجل الى ان

ملك لويس الحادي عشر المتوفى سنة ١٤٨٣ . وانشأوا في مدينة مون بيليه مدرسة للطب وذلك في القرن الثالث عشر وهي أقدم مدرسة طبية في أوربا بمد مدرسة ساليرن التي بجوار نابولي . وكانت الاندلس في متنها عزها وحضارتها فجلبوا منها لمدرسة مون بيليه المعلمين والمدرسين من العرب واليهود المستعربين . وفي سنة ١٣٢٣ م انشأوا في مدينة طولوز جمعية أدبية دعواها مدرسة العلم المفرح (Collège du gai savoir) وجعلوا جوائز الشعر ازهاراً مصنوعة من الذهب والفضة تفرق على نوابغ الشعراء بمد تقدير الجمعية وحكمها . وفي أواخر القرن الخامس عشر الميلاد أوقفت إحدى المحسنات من نساء طولوز أموالها على هذه الجمعية فأتسعت ثروتها وزادت رغبة الشعراء فيها وقبلوا على التخل فنون الادب وحسنوا المنطق والكلام باللسان الفرنسي . ولم تزل هذه الجمعية الادبية زاهرة الى يومنا هذا وتسمى جمعية او (اكاديمية لعب الازهار) وتتألف من أربعين محافظاً ومن معلمين كثيرين . وسمي أعضاء هذه الجمعية بالمحافظين إشارة الى ما يجب عليهم بحسب قانونهم من المحافظة على قواعد اللسان وفنون أدبه . ويخلفون في اليوم الثالث من الشهر مايوفي كل سنة ويوزعون الجوائز والنقود على مستحقها . ولهم تسع جوائز من الذهب والفضة كل جائزة على شكل زهرة مخصوصة مثل الاقحوان والياسمين والسوسن ومنها ما هو للشعر ومنها ما هو للنثر والخطب - ورأينا فيما سبق كيف نال فيكتور هوغو جائزة هذه الجمعية

وفي القرن الرابع عشر الميلاد ترجم الأفرنج الكتب اللاتينية للفرنساوية ونقلوا علوم اليونان وفلسفتهم عن العرب ولم يكن لهم معرفة باللغة اليونانية ولا بما دون فيها فترجموا كتب ارسطو عن اللاتينية المترجمة عن العربية والعربية مترجمة من اليونانية أو السريانية . ثم ظهر فن التشخيص وكان منشأه من الكنيسة ومن تشخيص آلام المسيح عليه السلام وما شبه لهم فيه من القتل والصلب . فهذا أساس فن التشخيص ثم وسعوا دائرة هذا الفن ووضعوا فيه المؤلفات الكثيرة واستحدثوا فيه أنواعاً مختلفة وطرقاً متنوعة وقبلوا على درس أدب اللغة اللاتينية وأدب اللغة اليونانية وتبحروا

فيها فانقشت أساليب هاتين اللغتين في نفوسهم وخذوا حذو شعراء الرومان واليونان واتخذوا أشعارهم ورواياتهم منوالاً نسجوا عليه أمثالها من كلمات أخرى فرنساوية ولم يزالوا كذلك حتى بلغوا شأواً كبيراً على عهد لويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥ م) الملقب بالكبير وأصلحوا فنون الادب وهذبوها وفتحت الماركيزة رامبويه دارها للادباء من سنة ١٦٣٥ الى سنة ١٦٦٥ م وكانت تستقبلهم هي وبناتها ويعقدون في حضرتهامنتدى أدبياً يحضره الشعراء والادباء والظرفاء ويتسامرون فيه وينشدون الاشعار ويقصون القصص والمواد الادبية والعلمية . فكان هذا اول ناد في باريس خدم انتشار الادب والمعارف وساعد على ترقى اللغة وعلى اجتماع الرجال بالنساء في جلسة أدبية محترمة وثقرب الادباء من الامراء وأرباب الوجاهة بعد ان كانوا مخلصين لا يحترفون بالادب الا لاستجداء المعروف وطلب الاحسان . وصارت السيدات فرنساويات يقلدن الماركيزة في الاقبال على تحصيل الادب والمعارف وفتح أبوابهن للشعراء والكتبة . وأرادت بعض سيدات الاستانة في عصرنا تقليد الماركيزة في حماية الادب والمعارف فنجح عملهن مدة ثم أقفلت دورهن . وفي سنة ١٦٣٥ أسس الكاردينال ريشيليو الاكاديمية فرنساوية من أربعين عضواً وفوض اليهم جمع قاموس اللغة فرنساوية ثم أسست أكاديمية الفنون والآداب واشتغلت بالتاريخ والآثار القديمة ثم أكاديمية العلوم الاخلاقية والسياسية واشتغلت في الفلسفة وعلوم الاقتصاد ثم أكاديمية العلوم الرياضية والطبيعية واكاديمية الصنائع النفيسة وغير ذلك من المؤسسات العلمية النافعة وظهر من الادباء بالزاق وفواتير وديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) وهو الذي احيا الفلسفة وأوجد التعبيرات الفلسفية في اللغة فرنساوية . وكان اماماً في الادب فسلك فيه مسلكاً جديداً واتخذ لنفسه طريقة مخصوصة تنسب اليه وتسمى باسمه . ثم أنشأ الكساندر هاردي مسرحاً في باريس شخص فيه روايات كثيرة أخذ موضوعها من اسبانيا لتقدم فنون الادب فيها السبب مجاورتهم للعرب . وظهر من فحول الادباء بيرقورنيل (١٦٠٦ - ١٦٨٤ م) صاحب رواية هوراس التي صور فيها فضائل الرومان ومحبتهم لاطنهم وبذلهم دونها المال

والبنين . وأبداع ما في هذه الرواية حديث المرأة التي أتت شيخاً من قبيلة هوراس تخبره بموت ابنه في حرب لهم مع قبيلة كورياس وبنجاة ولده الثالث بالفرار من ميدان الحرب فتجلد الشيخ على موت ابنه وغضب من فرار ولده الثالث . فقالت له المرأة « ماذا تريد ان يفعل وهو وحده مع ثلاثة من أعدائه » فأجابها الشيخ « أريد ان يموت » . ومن أئمة الادب المؤسسين لطريقة (كلاسيك) راسين (١٦٤٩ - ١٦٩٩) وكان معاصراً لقورنيل ورقبيل له . نظم رواية اندروماخه ونسجها على منوال رواية بهذا الاسم لاحد شعراء اليونان الاقدمين ثم درس تاريخ العبرانيين ونظم رواية « استير » ورواية « أتالي » التي قال فيها فولتير بأنها أحسن ما ألفه العقل البشري وسموا هذا النوع من الروايات العاجزة التاريخية « تراجيدي » . ومن مشاهير أدبائهم المتقدمين بوالو الشاعر الهجاء مؤلف المزيات وصاحب المذهب في فن الادب . ومواير مؤلف المضحكات المسماة كوميدي وفنون مؤلف تياماك المترجم للعربية والمطبوع في بيروت وترجمه للتركية يوسف كامل باشا بالفاظ لغوية وعبارة عويصة وترجمه احمد وفيق باشا بالفاظ سهلة . ولافونتين مؤلف الحكايات المنظومة على السنة الحيوانات وكانت المدارس الابتدائية تعول عليها في تدريس اللغة الفرنسية وتحفظها للاطفال وأما اليوم فقلت الرغبة فيها . ثم ظهر مونتسكيو مؤلف (اسباب اعتلاء الرومانيين وسقوطهم) و (روح القوانين) و (الرسائل العجمية) . وبوفون مؤلف التاريخ الطبيعي وفولتير الشهير الذي لم يدع باباً من أبواب الكتابة وفنون الشعر والانشاء الاطرقة . وديدرو صاحب الانسكلوبيديا وجان جاك روسو الذي هييج الافكار بمؤلفاته وهياً حدوث الانقلاب لكبير وبرناردن دوسن بير مؤلف بول وفيرجيني وغيرها من القصص والسياحات

١٧ الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية في أدب الافرنج

وما أخذوه من ذلك عن العرب

أدب كل اسان - كما لا يخفى - هو مجموع ما حصلت الاجادة في تأليفه